

محمود شبلي

حياة يحيى

دار الجيصل
بيروت

حياة يحيى

جميع الحقوق محفوظة
لـ (دار المسيل)

الطبعة الثانية
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

الاهداء

اللهم ... منك ... وإليك

محمد شلبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ... عدد ما خلق في السماء ...
الحمد لله ... عدد ما خلق في الأرض ...
الحمد لله ... عدد ما خلق بيدها ...
الحمد لله ... عدد ما هو خالق ...
وأصلي وأسلم ... على خاتم النبيين ... عدد ذلك ...
وبعد ...
هذا كتاب ... ان شاء الله ... فريد ... عن نبي فريد ..
عن موجة فريدة ...
أشير اليها في قوله سبحانه : « لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا » ١٢ .
أي موجة كهذه الموجة ! ..
يلبل له صوت فريد ... من بين بلابل الحضرة ...
البحر اليعياوي ... يموج بتلك الأمواج ...
« وَحَسَنًا مِنْ لَدُنَّا ... وَزَكَاةً ... وَكَانَ تَقِيًّا » ..
حنانا ... لا يتناهى ...
زكاة ... لا تتناهى ...

تقوى ... لا تتناهى ...
كل أولئك ... كان في يحيى مجموعاً .
وغير أولئك ... من الصفات العلى ... كان فيه متلألئاً ...
ومن أولئك المتلألئات فيه ...
« سلامٌ عليه ...
« يومَ وُلِدَ ...
« ويومَ يموتُ ...
« ويومَ يُبعثُ حَيًّا » ..

محمود شلبي

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

کوی عص ؟ ...!

كاف ...

هنا ...

يا ...

عين ...

صاذق !!

تلکم الجميلة الجليلة .. فاتحة سورة « مريم » .. انها بحر موج بالأسرار ..
زخّار بالأنوار .

فما سرها .. وما نورها؟! .

وما هذا الجمال السرمدي .. في ثنايا ترتيلها!

كانما هي صفوف من الملائكة المكرمين .. قد جاءوا من عليين .. يرتفونها
أبداع ترنيم!

انها موجات علوية قدسية .. تتشمشع إلى الفؤاد .. فتتفتح أمامه ..
مما يريح السماء .. فيسمع النداء :

هذه بعض آياتي في خلقي .. هلم فاسمعوا :

« ذكر رحمت ربك عبده زكريا » .

هذا ذكر .. رحمت ربك .. تجلت وظهرت في عبده .. الذي اسمه زكريا!

ثم تتلألاً جميلة أخرى .

فما هي تلکم الجميلة؟! .

إذ فادى ربه ... فداء ... خفيا ؟! ...

ليس معنى « خفياً »

أي همساً .. أو بعيداً عن الناس .
كلا .. فالأنبياء .. فوق ذلك المستوى .
انهم عند مستوى .. يُسمع فيه صريف الأقلام .
وإنما « خفياً » بالنسبة اليهم .. صلى الله عليهم .
أي .. خفياً عن السائل نفسه .
فهل يستخفى الإنسان عن نفسه ؟!
نعم .. هؤلاء كذلك ا .
أي .. وهو في مقام الفناء .
حيث لا يرى سوانا .
هنالك .. دعانا ! .

« قال رب » .

« اني وهن العظم مني .

« واشتمل الرأس شيباً .

« ولم أكن بدعائك رب شقيماً » .

وهن العظم مني .. تفككك .. من الكبر .

واشتعل الرأس .. كله .. كأنه شعلة واحدة بيضاء .
ولم أكن .. طيلة حياتي .. وفي أي حال من أحوالي .
بدعائك .. بسؤالك وندائك .
ربّ شقيّاً .. أشقى برد دعائي وعدم إجابته .
وإنما عودتني .. يا كريم .. أن تستجيب دعائي .. فأسعد مرتين .
مرة حين أناديك .
ومرة حين تستجيب الدعاء !.

وكانت ... امرأتي ... عاقراً ؟ ...

« واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً » .

ما زلت أقول .. وسأظل أقول .. الى ما شاء الله لي أن أقول .
ان الجناية الكبرى .. التي يرتكبها كثير من الذين يكتبون عن الأنبياء .
انهم يكتبون عنهم .. على أنهم وقائع وحوادث .. وتواريخ وسير ..
تُرَوَى وأحاديث تُسَرَد .
فيظفنون بذلك الشمس .. بما كتبت أيديهم .. فويل لهم مما يكتبون !
وإنما الأنبياء .. أنوار مكنونة .. في بشر .. يجب أن تُفجَّر .. فتشعشع
بما لا يحصى من الإشعاعات .
وإن كانوا لا يريدون أن يفهموا .. فليتدبروا قوله في امامهم .. والممثل
لهم جميعاً :

« وسراجاً منيراً » ؟!

أي شمساً .. أنوارها لا نهاية لها .
فجُئاع شخصية الأنبياء .. هو هذا .
فإذا مسستهم .. من هنا .. سطعت لقلبك مراتب من الأنوار .. تتوالى
وتتعالى .. الى ما لا يتناهى .
وإني لأرجو الله سبحانه .. أن يكون هذا سبيلي اليهم .. صلى الله عليهم !

« واني خفت » طيلة حياتي .. وما زلت أخاف .

« الموالي » الورثة .. أولئك الأفاكين .. سدنة هذا البيت .. الذين بدلوا
وأفسدوا كل شيء .. وتحولوا الى الدنيا وجمع حطامها .

« من ورائي » بعد موتي .. بعد أن أتركهم ورائي في هذه الدنيا .

« وكانت امرأتي عاقراً » في الأزل .. خلقتها عقياً لا تلد .

فأنا أطلب المستحيل .. ولكن قدرتك تذيب المستحيل .

« فهب لي من لدنك ولياً » غلاماً صالحاً .. من محض الجود والكرم والمنة .

« يرثني » يرث هذه النبوة التي أحملها .. فيحملها من بعدي .

« ويرث من آل يعقوب » ويرث هذا التراث الثمين .. تراث الأنبياء

جميعاً .. الذين بعثتهم من أسباط يعقوب .. يوسف .. موسى وهارون ..
داوود وسليمان .. وغيرهم من الرسل والأنبياء .. هذا تراث مقدس عريض ..
يحتاج الى رجل أمين .. الى عملاق حقيقة .. ينهض به .. ويؤديه إلى الناس ..
في أمانة وعزم ! .

« واجعله رب رضىا » في أعلى درجات الرضى .. ليكون مؤهلاً للحمل

رسالتك وكلماتك الى الناس ! .

يا زکريا ... انا ... نبشروک؟! ...

« يا زكريا » .. الله .. المنادي .. وزكريا المنادى ١٩ .

يا زكريا ١٩ .

أي شرف وُضع على رأسك زكريا .. أن ناداك ربك « يا زكريا » ١٩
« إنا » نحن الله .. من محض الجود .. ومحض الكرم .. ومحض الفضل ..
ومحض المنة .

« نبشرك » نلقى اليك بما يسرك .. وتقر له عينك .

« بفلام » فريد .. ليس كمثل غلام .

« اسمه » وسيكون اسمه .. كما كان في علمنا .. ومسطورا في الكتاب عندنا .

« يحيى » نحن اخترنا له هذا الاسم .. الذي لم نجعله لأحد من قبله .

« لم نجعل له من قبل سميا » من تسمى بهذا الاسم .

هذا في الظاهر .. وهو إشارة الى معنى باطن بعيد .

لم نجعل له من قبل سمياً .. أي مثلاً في صفاته العليا .. وسموه ورقبه .

هو موجة فريدة غير مسبوقه .. ولا مكررة .. وإنما إنشأناه إنشأنا ..

فجعلناه تركيباً جديداً فريداً .. ليس نسخة مكررة من بني آدم .

وإنما هو شيء متميز .. بخصائص متميزة .. لم تظهر من قبل في غيره ..

وهذا هو معنى .. لم نجعل له من قبل سمياً .

هو بلبل من بلابل الحضرة .. انفرد بصوت خاص .. ونغم فريد .. لم

ينرده أحد قبله .

فنادته ... الملائكة ...!

في « هريم » ...

« إنا نبشرك بغلام » .

وفي « آل عمران » ...

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أت الله يبشرك بيحيى
مُصَدِّقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين » !.

ولا تعارض ..

إنما المبشر رأساً هو الله .

وحاملات البشري من الله .. إلى زكريا .. هم الملائكة .

فما أكرمها بشري ..

من رب كريم ..

يحملها ملائكة مكرمون ..

إلى نبي كريم ..

بولادة نبي كريم ..

في حال كريم .. « وهو قائم يصلي في المحراب » ..

طلب زكريا .. « وليا » ..

فأعطاه ما سأل وزيادة .

طلب ولياً .. عبداً صالحاً ..
فأعطاه « غلاماً لم نجعل من قبله سمياً » !
ثم زاده .. فماذا زاده ؟
« مُصدقا بكلمة من الله » سيكون مبشراً بظهور المسيح عليه السلام ..
المخلوق بكلمة من الله .. كن فيكون !
ثم ماذا زاده ؟ !
« وسيداً » وعظيماً في قومه .. مهيباً في الناس .. رفيع الدرجات في
الدنيا .. رفيع المقام في الآخرة .
ثم ماذا زاده ؟
« وحصوراً » عازفاً عن الشهوات الدنيا .. يحصر نفسه عنها .. متوجهاً
بكله وجزئه الى الله .
ثم ماذا زاده ؟
« ونبيياً » طلب زكريا « ولياً » فأعطاه نبيّاً .. وشتان ثم شتان .. بين
النبي .. والولي .
فالنبوة تطوي في مطاويها الولاية .
والنبي الواحد .. يخرج من موجته ألوف الأولياء .
وتلك احدى عجائب الأنبياء !
ونبيّاً .. عظيماً .. يكفي دلالة على عظمته « لم نجعل له من قبل سمياً » !
ثم ماذا زاده ؟ !
« من الصالحين » من قمة قمم الصالحين .. من أعلى أعالي الصالحين .
من استتمت فيهم خصائص الصلاح !

ثم ماذا زاده ..

« وحناناً من لدننا » غلاماً آتيناها حناناً عظيماً .. من لدنا رأساً .

يتميز عن الأنبياء .. بتلك الصفة .

أفردناه بنسبة زائدة من الحنان .

هو مجلي الإسم « الحنَّان » ..

ثم ماذا زاده ؟

« وزكاة ورقياً » .. عظيماً .. وسجواً شامخاً .. أعلى من السماء .

غلاماً راقياً .. أشد الرقي .. سامياً أشد السمو .. رفيعاً أشد الرفعة .

« وكان تقياً » في حياته كلها .. كان يخاف الله أشد الخوف .

فهو مجلي الجلال !

ثم ماذا زاده ؟

« وبراً بوالديه » شديد البر بأمه وأبيه .. بأمه البصابت أو اليزابيث ..

وأبيه زكريا .

ثم ماذا زاده ؟

« ولم يكن جبّاراً » عنيداً .. ديكتاتوراً .. وإنما هو يخفض جناحه

للمؤمنين .. ويفيض شفقة ورحمة بالناس .

« عصياً » لم يعص الله قط .

وكيف يعصيه .. وقد صنعه على عينه .

واجتباها لنفسه ..

ہنالک ... دعا زکریا ... ربہ !؟ ...

زكريا ...

ليس أمراً هيئنا .

وإنما هو نبي عظيم ..

ذكره الكتاب ثمان مرات .. تنويهاً بشأنه .. وتسجيلاً لفضله .

مرة يسجل له أنه أحسن من يقوم بالتربية الربانية .. لأهل الله وخاصته ..

« فقتلها ربُّها بقبولِ حَسَنٍ

» وانبتها نباتاً حَسَنًا

» وكفلها زكريا .. »

أي أنبتت مريم .. عليها السلام .. أحسن نبات .

فمن هو الذي كلفه الله .. بإنبات مريم .. أحسن نبات؟!!

الجواب « وكفلها زكريا »! .

أي .. الذي قام بتربية مريم .. التي اصطفيناها على نساء العالمين .. هو

زكريا .. أحسن من يؤدي ذلك الدور العظيم! .

فإن اختيار زكريا بالذات من دون أحبار بيت المقدس .. دلالة على أنه

أحسنهم عند الله هو زكريا .. فهو المختار ليقوم بتربية أحسن النساء! .

ولم تكن قرعة الأقسام .. محض تصرف من الأحبار .. وإنما هو تدبير إلهي

يحتم دفع تلك الرضيعة .. مريم .. إلى زكريا .

ولذلك اقتنعوا بأقلامهم أكثر من مرة .. وكل مرة يخرج قلم زكريا !
إذاً زكريا هو المراد .. لأنه أحسنهم .. فهو الذي يقوم على تنشئة أحسن
النساء !..

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك »
« وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفلُ مريم
« وما كنت لديهم إذ يختصمون » !..
اختلف الأخبار .. من يكفل هذه المولودة العظيمة .
كلُّ يريدُها ...
فاتفقوا على القرعة .. وألقوا أقلامهم في ماء النهر .
ففي كل مرة .. يخرج قلم زكريا !.
وهذا تدبير من الله .. ولكنهم لا يشعرون !.
إن المراد أن تنبت مريم أحسن نبات ..
فالمرشح لهذا هو أحسن الأخبار ..
وذاك زكريا !..
هذه مرة .. ذكر الكتاب فيها زكريا !.
ومرة أخرى .. يذكر الكتاب زكريا .
« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً .
« قال : يا مريمُ أنسى لكِ هذا !
« قالت : هو من عند الله
« إن الله يرزقُ من يشاء بغير حساب » !
مشاهد الجمال تتوالى !.

كئيباً دخل عليها زكريا المحراب .
 كل مرة يدخل على مريم المحراب .. يتفقد أمرها .
 يفاجأ بمجائب الإكرام ! .
 ووجد عندها رزقا ؟!
 ابهام الرزق .. اشارة إلى أنه أعلى مما تدرك العقول .
 واكرام الكريم .. لعباده المكرمين .. فوق إدراك العقول دائماً .
 رزقاً ؟ ..
 ظاهر أم باطن ؟ .. دينوي أم أخروي ؟ .. مادي أم روحي ؟
 كلاًّ ثم كلا .. لا سبيل الى علمه لنا .
 إنه شيء يكرم به الكريم .. من اصطفها على نساء العالمين ..
 وزكريا لا ينقضي عجبه .. وهو ما هو ؟ .
 ولكن العذراء .. عليها السلام .. تترقى وتلقى .. ثم تترقى وتلقى ! .
 فلما شاهد زكريا ما شاهد .. من بحار الإكرام ناداها :
 « يا مريم أنسى لك هذا » ؟
 من أين ؟ .. ومتى ؟ .. وكيف ؟ .
 ولكن لا أين .. ولا متى .. ولا كيف .. ولكن :
 « هو من عند الله » ! .
 حيث لا أين ... ولا متى .. ولا كيف .. يا أيها النبي زكريا ! .
 ثم تشمعت من اصطفها وطهرها واصطفها على نساء العالمين :
 « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ؟ .
 وكانت مشاهد رآها زكريا ..

أطمعته طمعاً عظيماً ..

أن يطلب من الله مطلباً مستحيلاً ..

حيث لا استحالة بالنسبة الى الله ..

وإنما الاستحالة بالنسبة الى عقولنا الضعيفة :

« هنالك دعا زكريا ربه ، ..

وكانت هذه هي المرة الثالثة التي ذكر فيها الكتاب زكريا ..

فماذا قال زكريا .. وماذا دعا؟! .

« قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً .

« واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً .

« يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً .

وماذا قال كذلك .. هنالك؟! .

« قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء .

ثم ماذا قال .. كذلك .. في مقام « هنالك »؟! .

« رب لا تدروني فرداً وانت خير الوارثين » .

هذا ما نادى زكريا ربه ..

في مقام .. « هنالك دعا زكريا ربه » .

وهذه الكلمات التي تموجت .. من قلب زكريا .

تحولت إلى موجات .. عند الله .

وهذه الموجات هي التي تخلّص منها يحيى ..
هي التي تكونت منها صفات يحيى العليّا ..
« فاستجبنا له .
« ووهبنا له يحيى » ..
كما تخلّصت صفات مريم العليّا .
من كلمات امرأة عمران ..
« إذ قالت امرأة عمران .
« رب اني نذرت لك ما في بطني محرّرا .
« فتقبل مني انك انت السميع العليم » .
والتخلّص أسرار ..
ونية الأبوين عند التقائها .. تؤثر في صفات الجنين .
فسبحان ربك العظيم ! ..

أنى ... يكون لى ... غلام ٠١٤

التعبير القرآني ...

يستحيل الإتيان بمثله ! .

أنسى يكون لي غلام ؟ ! .

فيها إعجاز الإعجاز ! .

مق قالها زكريا .. وكيف يقولها .. وهو النبي الذي يعلم من الله ما لا نعلم .
الله يبشره بغلام .. وهو يستقبل البشرى .. بمثل هذا الاستغراب .. فلماذا
كان من زكريا هذا ؟ .

ان زكريا .. نادى ربه نداءً خفياً ..

وألحّ في النداء .. وتضرع بشقّ ألوان الضراعة .. وتحنّن بكل
صنوف التحنن .

تارة .. « هب لي من لدنك وليا » ..

وتارة .. « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة » ..

وتارة .. رب لا تدرفني فردا ، ..

ورغم أنه قال في دعواته : من لدنك .. من لدنك ، أي هب لي من قدرتك
لا من النواميس المألوفة ..

إلا أن مفاجأة المعجزة .. أحدثت صدمة .. دكت العقل دكاً دكاً ..
فجعل عقل زكريا يردد « أنى يكون لي غلام » ؟ !

ثم جمل يضع الحثيات « وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من
الكبر عتياً » ..

العقل يقول .. رجل في المائة والعشرين من عمره .. ولم يسبق له الإنجاب
قط .. وامراته فوق التسمين من عمرها .. وطيلة حياتها عاقراً .. مستحيل أن
يحدث منها انجاب .

هذا هو العقل .. وما يقول .. ولكن الله يقول : « يا زكريا .. انا نبشرك
بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً » !.

هنالك تخلخل العقل .. ثم تبدد .. ثم تلاشى ..

فجمل زكريا .. يستفهم : كيف سيحدث هذا .. هل أعودُ الى الشباب ..
هل تعود امرأتى الى الشباب .. هل سيحدث تغيير في تركيب أعضائها ..
كيف .. كيف ؟.

ان زكريا يعلم علم اليقين ان الله اذا قال .. تحتم أن يفعل ما يقول ..
إذا هناك غلام سوف يكون حتماً ..

ولكنه لا يفهم .. ماذا سوف يحدث .. ليكون هذا الغلام ..:

هل سيجرى تعديل في تركيبه .. وتركيب زوجه ..

هل سيأمره الله .. بالتزوج بامرأة أخرى شابة .. لتنجب الغلام ؟.

وهذا الذي حدث من زكريا .. فجمله يردد « أنى يكون لى غلام » .

ثم يسرد حثيات دعواه .. « وكانت امرأتى عاقراً .. وقد بلغت من
الكبر عتياً » .. أي أقصاه .. منتهى الكبر .

هو هو .. ما حدث من مريم .. حين فوجئت بالمعجزة « إنما أنا رسول
ربك لأهب لك غلاماً زكياً » ..

فجملت يتلاشى عقلها .. ويتلاشى .. وهو يردد .. ويردد « أنى يكون
لى غلام ، ؟! » .

تأمل .. نفس الكلمات التي قالها زكريا .. واستقبل بها المفاجأة .
وكما جعل زكريا يسرد حيثيات دعواه .. جعلت مريم تسرد حيثيات
دعواها « ولم يمسنني بشر .. ولم أكُ بغيا » !.

هو يحتاج بأن امرأته كانت عاقراً .. وهو قد بلغ من الكبر عتياً .
وهي تحتج .. بأنها لم يمسنها بشر .. في الحلال .. ولم تك قط بغياً ..
ليمسنها بشر في الحرام !.

استحالة أمام عقل زكريا ..
واستحالة أمام عقل مريم ..
انما هي المفاجأة .. أذهبت العقل ..
وجاء شيء فوق العقل ..

شيء اسمه « انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون » !.
لقد قال زكريا .. ولقد قالت مريم .. كل منهما قال « انبي يكون
لي غلام » ..

ولقد سرد زكريا .. حيثياته .. وسردت مريم حيثياتها ..
فماذا قيل له .. وماذا قيل لها ؟ !.

أما زكريا .. فقد قيل له : « كذلك الله يفعل ما يشاء » !.
و « كذلك قال ربك هو علي هينٌ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » .
أما مريم .. فقد قيل لها :
« كذلك الله يخلق ما يشاء .

« اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون » .
و « كذلك قال ربك هو علي هينٌ » .

« ولندجمله آية للناس ورحمة منّا .

« وكان امرأ مقضيا » ..

كأنه يُراد أن يُقال ..

يا أيها النبي زكريا .. أكان لك عجباً .. أن يكون منك وأنت المعجوز
الفاني .. وزوجك المعجوز العاقر .. غلام ؟ .

وما هذا يكون بالنسبة .. إلى خلقك من قبل .. يا زكريا .. ولم
تك شيئاً ؟ .

ماذا كنت يا زكريا .. قبل أن أخلقك خلقاً من بعد خلق .. في رحم أمك ؟
ألا تذكر .. أنك لم تك شيئاً ؟ .

فهل خلقك من لا شيء أعجب .. أم خلق يحيى من أبوين قائمين أعجب ؟
هنالك بحث زكريا عن عقله .. فوجده قد تبدد وتلاشى .

وتحول زكريا .. إلى قلب .. يسمع ويرى .

والمعجزات تُدرك بالقلوب .. ولا تدرك بالمقول ..

وكأنه يراد أن يقال .. يا أيتها الصديقة مريم .. يا أيتها التي اصطفتيتها ..
وطهرتها .. واصطفتيتها على نساء العالمين ..

أكان لك عجباً أن أهب لك غلاماً .. دون أن يمسسك بشر .. دون أن
يحدث التقاء الذكر بالأنثى ..

أظنن أن الناموس الذي جعلته .. وهو أن يتكون الجنين من تلقيح
الذكر للأنثى .. يقيدني ..

كلا .. ثم كلا .. « الله يخلق ما يشاء » ..

لا ناموس يقيدني ..

ولا يكون الإله إلهاً حقاً .. إلا اذا كان يفعل ما يشاء .. و «يخلق ما يشاء» ..

ان الناس من ضعف عقولهم .. وإلف الناموس الذي به يتناسلون .. ظنوا أنه لن يكون تناسل .. إلا عن طريق تلقيح الذكر للأنثى .

فأردت أن يفهموا أني أخلق ما أشاء .. كيفما أشاء .. فجعلت هذه التجربة .. تجربة عيسى بن مريم .. تجربة خلق جديدة .. غير ما ألفوا .. فقضيت أن يُخلق عيسى من أم بلا أب .. من غير تلقيح .. ليفهموا أن الله يفعل ما يشاء .. و «يخلق ما يشاء» ..

ولولا أن تتداخل عقول الناس .. لأريناها ما لا يحصى .. من أساليب قدرتنا .. على ابداع الخلق .. بما لا يخطر على قلب بشر .

ولكن عقول الناس أضعف من احتمال ذلك ..

فجعلناها تجربة واحدة وحيدة .. ولم نكررها رحمة بالناس ..

لقد أردناها آية لهم .. دالة على اطلاق قدرتنا ..

فتخلخلت لها عقولهم .. وقال كثير منهم « أن الله هو المسيح ابن مريم » ..

فبدلاً من اتخاذ خلق عيسى .. آية على قدرتنا ..

قلبوا الأمر .. وجعلوه هو الله ؟

من أجل ذلك .. لن نكررها ..

ان تجربة واحدة .. خلخلت عقول ملايين البشر ..

فكيف لو أريناهم تجارب كثيرة ؟

« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » ..

كأن شيئاً من هذا يراد أن يقال لمريم .. وإنك لتجدي الإشارة الى نحو هذا

في قوله : « ولنجعله آية للناس .. وكان أمراً مقضياً » ..

ألا .. ما استبعد زكريا .. وما استبعدت مريم .. ما بُشرا به ..
وما كان لأحدهما أن يستبعد .. وهو النبيّ .. وهي التي اصطفأها على
نساء العالمين ..

وإنما هي المفاجأة .. مفاجأة القدرة القادرة القاهرة الباهرة ..

جعلتها يستفهمان : « أنى يكون لبي غلام » ؟

كيف سيكون هذا ؟

ماذا سوف يحدث ياربّ ..

ما كان زكريا يعلم الغيب .. فيعلم مقدماً .. انه سوف يُرد الى استطاعة
الإنجاب .. وأن زوجه سوف تُرد الى استطاعة الحمل « وأصلحنا له زوجه » .

وما كانت مريم تعلم الغيب .. لتعلم مقدماً .. انه سينفخ فيها .. فتحمل
بعيسى .. « فنفخنا فيها من روحنا » ..

هذه غيوب .. لا سبيل لأحدهما الى علمها ..

ويزيدها غموضاً .. أنها مغايرة ومخالفة تماماً .. للمهود في الناس ..
فاستفهامها طبيعي ..

أما تسليمها بالقدرة الإلهية .. فلا شك فيه ..

وإنما هو الغيب .. المحجوب عنها .. دفعها الى الاستفهام ..

وهكذا .. كانت البشرى بيحيى .. مفاجأة لأبويه ..

وكانت البشرى .. بعيسى .. مفاجأة لأمه ..

وتحولت البشرى فوراً .. الى حمل .. فحملت اليصابات بيحيى ..

وتحولت الأخرى فوراً .. الى حمل .. فحملت مريم بعيسى ..

معجزتان .. تحدثان .. في وقت واحد .. من الزمان ..

« فيأيّ آلاء ربكما تكذبان » ؟

اجعل ... لي ... آية ١٤...

كأنه يراد أن يقال :

هذا اللسان الذي تجادلنا به .. لنمتهلته .. ولنحبسنه .. فلا يستطيع الكلام .. ليمتفرغ باطنك لنا .. قام التفرغ .. يا زكريا؟ .

« قال رب اجعل لي آية .

« قال آتيك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا .

« واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار » .

« قال ، زكريا عليه السلام « رب اجعل لي آية » علامة .. أعرف بها وقوع المعجزة ..

« قال ، الله سبحانه :

« آتيك » علامتك .

« ألا تكلم الناس ثلاثة أيام » لا تستطيع الكلام إطلاقا مع الناس ثلاث ليالٍ بأيامهن متواليات .. سوف نحبس لسانك عن الكلام .

« واذكر ربك كثيرا » لتتفرغ تفرغا تاما .. لنا .. توجهه اليأس بكل ما فيك ..

« وسبح بالعشي والابكار » .

« بالمشاء والصبح .. وأصل تسبيحنا ليلا ونهارا .

« وفي سورة « مريم » ..

« قال رب اجعل لي آية .

« قال آتيك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً » .

ها هنا « ثلاث ليالٍ » وفي آل عمران « ثلاثة أيام » .

أي ثلاث ليالٍ متواليات بأيامهن .. أي طيلة الأيام الثلاثة بلياليهن .

« سوياً » وأنت سويّ الخلقة .. ما بك من مرض يحبس لسانك .. وإنما أنت كما أنت .. وإنما نحن حبسنا لسانك عن الكلام .. لتكفه عن الجدل .

ولتستغرق في التوجه إلينا باطناً وظاهراً .

قلبك .. ولسانك .. في حال « واذكر ربك كثيراً .. وسبح بالعشي والابكار » .

سوف تترقى وتترقى يا زكريا ..

وسوف نعاملك .. ان لسانك هذا .. أولى به أن ينشغل بذكرنا وتسديحنا .

فإذا ما اجتزت هذه التجربة .. وانقضت الأيام الثلاثة .. أطلقنا لسانك .. فعاد كما كان .. يكلم الناس كما تشاء !

فإذا كلمك الناس .. خلال هذه الأيام الثلاثة .. فسوف لا يستطيع الكلام « إلا رمزاً » إلا إيماء .. أو بالإشارة .. أما اللسان فلا يستطيع الكلام !

وفوراً .. وقعت المعجزة ..

وفوراً .. كانت الآية ..

وحبس لسان زكريا ..

فأدرك وهو بالحراب .. أن يحیی سوف يكون !

فخرج ... على قومه ... من المخراب؟! ...

كما قيل لذكريا :

« آيتك ألا تكلم الناس » ..

قيل لمريم :

« فإما ترين من البشر أحداً .

« فقولي أتي نذرت للرحمن صوما .

« فلن أكلم اليوم إنسيًا ، ! .

سبحانك اللهم ..

تشابه عجيب .. وتطابق غريب .. بين الأمرين ! .

حق في السلوك الذي تواجهه به ذكريا للناس .. عند وقوع معجزة

خلق يحيى ..

والسلوك الذي تواجهه به مريم للناس .. عند وقوع خلق عيسى ..

ليس هذا محض صدفة ..

كلا وإنما تدبير محكم .. وحكمة عالية .. وأمر يُراد ..

أما ذكريا .. فمهما قال للناس .. أن الله سيب له غلاماً .. فإنهم لن

يصدقوه .. فليُحسب لسانه عن الكلام .

ولتقع المعجزة .. ولتعمل الیصابات بيحيى .. حق إذا شاهدوا نبیهم

وسيدهم ممنوعاً من الكلام .. أدركوا أن الأمر حقيقة .

وأما مريم . موضع التجربة .. التي لم تحدث قبلها .. ولا بعدها .
فهي جادلت قومها .. فإنهم لن يصدقوها .
إذاً .. فلتصمت مريم ..
وليتكلم المولود ..
« قال اني عبدُ الله » ! .
هنالك أبلس المكذوبون ..
وتلألت براءة مريم مما يأفكون ! .
تشابه غريب .. وتطابق عجيب .. بين أمرين .
أمر خلق يحيى .. وأمر خلق عيسى .
جدير بالتأمل الطويل .. والتفكير العميق .
ولقد تأدب زكريا بما أدبه ربه فأحسن تأديبه :
« فخرج على قومه من الخراب .
« فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » .
« فخرج » فوراً .. بعد أن حبسنا لسانه .
« على قومه » الذين كانوا في انتظار خروجه .. من الأحبار والرهبان
الذين يأترون بأمره .. ومن العابدين الذين يؤمون بيت المقدس .
« من الخراب » من القبلة التي يتوجه فيها الى ربه .. من الهيكل .
« فأوحى اليهم » فأشار اليهم بما يفهمون منه .
« أن سبحوا بكرة وعشيا » اديوا ذكر ربكم صباحاً ومساءً .. وما بين
ذلك .. شكراً على انعامه وإكرامه .. وما كان من آياته ..
وهذه المشاهد الجميلة الجميلة التي سجلها القرآن العظيم .

لا بأس أن ننقل هنا شيئاً مما ورد عنها عند أهل الكتاب .. للاستئناس
وزيادة اليقين .

جاء في إنجيل لوقا :

« كان في أيام هيرودس .. كاهن اسمه زكريا من فرقة أبييا وامراته من
بنات هارون واسمها اليصابات .

« وكانا كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم .
« ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدمين
في أيامهما » .

ونتأمل ها هنا « كانت اليصابات عاقراً » ..

فنجدها تدخل تحت اشعاع قوله تعالى : « وكانت امرأتي عاقراً » ..

ثم نتأمل « وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما » .

فنجدها تدخل تحت مظلة قوله تعالى : « وقد بلغت من الكبر عتياً » !

ثم يقول إنجيل لوقا :

« فبينما هو يكهّن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته
القرعة ان يدخل الى هيكل الرب ويُبخّر .

« وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور .

« فظهن له مادك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور .

« فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف .

« فقال له المادك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامراتك

اليصابات ستلدك ابناً وتسميه يوحنا .

« ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته .

« لأنه يكون عظيماً أمام الرب وغمراً ومُسْكراً لا يشرب .
« ومن يظن أنه يمتلئ من الروح القدس .
« ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم .
« ويتقدم أمامه بروح إيلياً وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والمصاة
إلى فكر الأبرار لكي يُهيئ شعباً مستهدداً .
وها هنا نلمس أن قول الإنجيل « وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً
وقت البخور » ..

يدخل تحت ظلال قوله تعالى : « فخرج على قومه من المخراب » ..
ونلاحظ أن ما جاء في الإنجيل : « فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين
مذبح البخور » ..

يدخل تحت ظلال قوله سبحانه : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في
المخراب » ..

ونجد أن : « لا تخف يا زكريا طلبتك قد سمعت وامراتك اليصابات ستلد
لك ابناً وتسميه يُوحنا » .

يدخل تحت ظلال قوله عز وجل : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام يسمى
لم نجعل له قبل سمياً » ..

ونجد أن : « ويكون لك فرح وإبتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته » ..
تدخل كلها تحت ظلال قول القرآن العظيم المعجز : « إنا نبشرك » .. لأن
البشرى تشمل الفرح والابتهاج والسرور للجميع ..

ثم نجد أن : « لأنه يكون عظيماً أمام الرب » ..
يدخل تحت ظلال : « لم نجعل له من قبل سمياً » ..

ثم نجد أن : « .. وخرأ ومُسكراً لا يشرب . ومن بطن أمه يتلىء من الروح القدس » .. إلى آخر أوصاف يحيى .

كل ذلك يدخل تحت ظلال قوله سبحانه : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقياً » ..

يقول القرآن العظيم : « وآتيناه الحكم صبياً » .

ويقول الإنجيل : « من بطن أمه يتلىء من الروح القدس » ..

ويقول القرآن : « وكان تقياً » ..

ويقول الإنجيل : « وخرأ ومُسكراً لا يشرب » ..

وتعبير القرآن معجز .. لأنه وصفه بأنه كان في حياته كلها ... في أحواله كلها .. تقياً .. على أعلى ما تكون التقوى .

فأين هذا الشمول .. من وصفه بفرع واحد من التقوى « وخرأ ومُسكراً لا يشرب » ..

ثم ماذا ؟ . ثم نعود لننظر ماذا قال الإنجيل لوقا ؟ .

« فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامراتي متقدمة في أيامها .

« فأجاب الملاك وقال له انا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا .

« وها انت تكون صامتا ولا تقدر ان تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته .

« وكان الشعب منتظرين زكريا ومتمجبين من ابطانه في الهيكل .

« فلما خرج لم يستطع ان يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل .

« فكان يومئذ اليهم وبقي صامتا » ..

وها هنا نجد أن ما جاء بالإنجيل .. ينتظم تحت ظلال ما جاء بالقرآن ..
 يقول القرآن : « رب اجعل لي آية » ..
 وفي الإنجيل : « كيف أعلم هذا » ؟ .
 ويقول القرآن : « آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » .
 وفي الإنجيل : وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي
 يكون فيه هذا » ..
 وفي اليوم الذي يكون فيه هذا .. أي الحمل بيهيى .. حدده القرآن العظيم ..
 بثلاثة أيام ..
 وهذا التحديد من بدائع روائع .. جوامع موانع الكلم .
 فمن ذا الذي يعلم من البشر متى سيكون الحمل بيهيى ؟ .
 اللهم لا أحد .. إلا الله .. علام الغيوب .
 فإذا نطق القرآن العظيم بتحديد المدة « ثلاثة أيام .. وثلاث ليال » ..
 علّم هنالك أن ذلك ليس بقول البشر .. لأن البشر جميعاً في الجهل
 بذلك سواء .
 وإنما هو .. قول الله .. الذي يعلم وحده سبحانه .. متى يقع الحمل بيهيى .
 ولا زكريا نفسه .. كان يعلم هذا .. رغم انه صاحب التجربة .. فكيف
 بمن سواه ..
 إذأ لا أحد يعلم ذلك إلا الله .
 إذا ما جاء بالقرآن العظيم .. من تحديد .. إنما هو دليل قاطع ساطع ..
 على أن ذلك كلام الله العزيز ..
 وها هنا دقيقة .. أن الفترة التي يعتقل فيها لسان زكريا .. هي الفترة التي
 يقع فيها الحمل بيهيى ! .

وهذه وحدها عجيبة أخرى ..

ثم ماذا ؟. ثم يقول القرآن : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا » ..

ونجد في الإنجيل : « فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ..

« فكان يومئذ اليهم وبقي صامتاً » ..

وتأمل « فأوحى اليهم » ..

و « فكان يومئذ اليهم » .. كأن هذه الأخيرة تفسيراً حرفياً للأولى ..

ثم يقول إنجيل لوقا :

« ولما كملت أيام خدمته مضى الى بيته .

« وبعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر
قائلة هكذا قد فعل بي الرب في الايام التي فيها نظر اليّ لينزع عاري
بين الناس » .

فإذا كان بعد أن مضى .. خمسة أشهر .. على حمل اليصابات .: بيحي !.

وَأْتِيَاءَ ... الْحُكْمِ ... صَبِيحًا ١٤٢٠٠٠

« وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل
اسمها ناصرة الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف .
« واسم العذراء مريم .

« فدخل اليها الملاك وقال سلامٌ لك آيتها المنعم عليها .
« الرب معك .
« مباركة أنت في النساء .

« فلما رآته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى ان تكون هذه التحية .
« فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدتِ نعمة عند الله .
« وها أنتِ ستحبلين وتلدن ابنا وتسمينه يسوع .
« هذا يكون عظيما ، .

وهذا المشهد بأكمله يدخل تحت ظلال قوله تعالى في القرآن العظيم :
« .. فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا .
« قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا .
« قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا » ! .
كما يدخل تحت ظلال قوله سبحانه :

« إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى
ابن مريم .

« وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » ! .
وتأمل هنا قوله سبحانه : « وجيها في الدنيا والآخرة » .
وقول الإنجيل : « هذا يكون عظيما » .. تكاد تكون تفسيراً لكلمة
« وجيها » ..

أو تأمل قول الله : « اسمه المسيح عيسى » ..
ثم انظر كيف ان قول الإنجيل : « وتسمينه يسوع » يدخل تحت ظلاله ..
ثم ماذا ؟ ! .

ثم تضي الأحداث المباركة ..
« فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست اعرف رجلا ، ؟
وهذه تدخل تحت ظلال قوله تعالى :

« قالت أنسى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغيا » ! ؟ .
ثم يقول الإنجيل :

« وهو ذا اليصابات نسيبتك هي أيضا حبلى بابتن في شيخوختها وهذا هو
الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا .
« لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله .
« فقالت مريم هوذا أنا أمة الرب .
« ليكن لي كقولك .

« فمضى من عندها الملاك » .

تلقت مريم البشرى بالتسليم والتصديق التام ..
كما أشير إلى ذلك في كتاب الله :

« ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا

وسدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ،

صدقت بكلمات ربها ١٢ .

بشّرهما جبريل : « ان الله يبشرك بكلمة منه » ..

فصدقت .. واستسلمت .. وابتهججت ..

ثم ماذا ١٢ .

« واما اليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً .

« وسمع جيرانها وأقربانها ان الرب عظم رحمته لها فقرحوا معها .

« وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا .

« فأجابت أمه وقالت لا بل يُسمى يوحنا .

« فقالوا لها ليس احد في عشيرتك تسمى بهذا الاسم .

« ثم أومأوا الى أبيه ماذا يريد ان يُسمى ؟

« فطلب لونها وكتب قائلاً اسمه يوحنا .

« فتعجب الجميع .

« وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله .

« فوقع خوف على كل جيرانهم .

« وتحدث بهذه الأمور جميعها .

« فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين أترى ماذا يكون هذا الصبي .

« وكانت يد الرب معه .

« وامتأذ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ » ..

ثم يقول الإنجيل :

« أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان في البراري الى يوم
ظهوره » ..

ثم يقول :

« وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر، إذ كان بيلاطس
البنطلي والياً ، وهيرودس رئيس رُبع على الجليل ، وفيلبس أخوه رئيس
رُبع على إيطورية وكورة تراخونيتس ، وليسانتيوس رئيس رُبع على
الأبليّة .

« في أيام رئيس الكهنة حنّان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا
في البرية .

« فجاء الى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمهودية التوبة لمفكرة
الخطايا » .

طال ما نتقله عن الإنجيل .. في هذه المرحلة .. من حياة يحيى ..
عليه السلام .

لنضع أمام القارئ .. آفاقاً فسيحة .. في معنى قوله تعالى :

« وآتيناه الحكم صبياً » .!

أي .. وآتيناه يحيى .. الفهم صبياً ..

فانظر إعجاز القرآن .. وكيف يكون ..

هذا وجه .. ووجه آخر في الآية .. يتلاقى معه ..

« يا يحيى » الموهوب من لدنا .. المؤيد من عندنا .

« خذ الكتاب » أي التوراة .. واشرع في ضبطها وحفظها .

« بقوة » أي بنية خالصة .. وعزيمة صحيحة صادقة .

- « و » انما امرناه بحفظها وضبطها إذا قد ..
- « آتيناها الحكم » يعني الحكمة المتدرجة فيها .. وأعطيناها فهمها واستنباط الأحكام منها حال كونه ..
- « صبيا » لم يبلغ الحكم ..
- كذا قال بعض المفسرين .
- وجه الجمع بين الوجهين .. ان الله آتاه فهم التوراة وأحكامها صغيراً ..
- حقى إذا بلغ آتاه النبوة .. فتم فضل الله عليه ونعمته .
- « يا يحيى .
- « خذ الكتاب بقوة .
- « وآتيناها الحكم صبيا » ..

استمه ... یجیی ؟! ...

اليزابيث ...

تحيا .. بيحيى .. وعلامة حياتها .. « يحيى » ..
وزكريا . يحيى .. بيحيى .. وعلامة حياته .. « يحيى » ..
« قال رب اجعل لي آية » ..
اجعل لي معجزة .
« قال آتيك » معجزتك يا زكريا .
« الا يكلم الناس ثلاث ليال سويا » ..
لماذا هذا ؟!
لرفع مستوى زكريا .. رفعا عظيما .
ان هناك تجربة عظيمة .. سوف تستخرج منه .
فتحتم رفعه إلى مستواها .
وما هي هذه التجربة ؟!
هي كينونة طفل .. من شيخ تجاوز المائة « وهن العظم مني .. واشتعل
الرأس شيئا » .. من شيخ لا يكاد يتاسك .. تفككت عظامه .
ومن امرأة عجوز .. قاربت المائة .. وكانت طيلة حياتها عاقراً .
هذان الشيخان الفانيان .. منهما سيكون طفل .

وبدأ الاعداد للكينونة ..

زكريا .. يُمنع من الكلام .. ويُؤمّر بالتسبيح .. « واذكر ربك كثيراً » .

طاقات زكريا الظاهرة .. تعطل كلها فوراً .

وطاقاته الباطنة .. تُوجّه كلها إلينا فوراً .

الى متى ؟!

« ثلاث ليالٍ » .. لماذا ؟!

لترتفع موجات زكريا الروحية .. إلى أعلى مرتبة .. يُمكن أن يرتفع إليها

لماذا ؟! لأنه من هذه الموجات .. سوف يرث الطفل القادم ..

جميع الصفات .

فإذا كانت موجات زكريا .. في هذه الأيام الثلاثة .. أعلى .. كانت صفات
الطفل أعلى .

وأما الزوجة .. فهي الأخرى .. تتوجه أكثر وأكثر .. إلى ربها ..
« ان سبّحوا بكرة وعشياً » .

هناك وعدٌ حتمي الوقوع .. من الله .

وهناك آية وقعت بزكريا .. وهي حبس لسانه .. تؤكد ذلك الوعد .

وهناك شيخ غادر المائة .. يموج إلى ربه موجاً .

وهناك زوجة قاربت على المائة .. تموج هي الأخرى موجاً عظيماً .

وعادت الحياة الى زكريا .. وكان اهتزازها غضناً طريماً .

وعاد الشباب إلى اليصابات .. أو اليزابيث .. وتغيّر التركيب .. من

الشيخوخة إلى الشباب .. ومن العقم الى الإنجاب .. « وأصلحنا له زوجه » .

أعدتها إلى الشباب .. فصارت صالحة للإنجاب .

ما هذا .. أحياء بعد موت ؟! .

أشباب .. بعد شيخوخة ؟! .

نعم .. نعم ..

وكان لسان حال الیصابات .. « أألد وأنا عجوز » ؟! .

وكان لسان حال القدرة .. « أتعجبين من أمر الله » ؟ .

وكان لسان البشرى .. « كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » ..

ارتفعت أمواج زكريا الروحية .. خلال هذه الأيام الثلاثة .. الى أعلى مستواها ..

وارتفعت أمواج الیصابات معه .. الى مولاها .

هنالك .. التقى الزوج بزوجه .

هنالك .. وقع الحمل .. بيحيى .

فجاء الطفل على صفات أبيه .. آنذاك .

وصفات أمه .. وقتذاك .

فكان حياة جديدة .. للمجوزين .

ونعمة مديدة .. للفانيين .

فكل الناس تحيا مرة واحدة .. ثم تموت .

تحيا في الشباب .. وتموت في الشيخوخة .

ولكن زكريا وزوجه .. أحيهما الله مرتين .. في الدنيا .

مرة .. حياتها الطبيعية .

ومرة .. حين أحيهما بيحيى .

كم كانت النعمة عليها .
 وإن أعظم النعم .. أن يتحقق لك المستحيل .
 وكم كان العطاء .. وإن أعظم العطايا .. ما ظننته لن يكون .
 « يا زكريا .
 « إنا نبشرك بغلام .
 « اسمه يحيى .
 « لم نجعل له من قبل سمياً » ! .
 اسمه يحيى ؟ !
 سوف تذوقان الحياة .. بهيحيى .
 سوف تمتد حياتكما .. بهيحيى .
 فإذا جاء .. يحيى .. فسوف يحيا .. ليحيى الموتى .
 نبياً .. يدعو الناس لسا يحييهم .. والرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ! .
 فكان يحيى .. حياة لوالديه .. « وبراءاً بوالديه »
 وأعظم البر بالوالدين .. أن تشعرهما بالحياة .
 وكان يحيى حياة للناس .. وأعظم ما تعطي الناس .. أن تعطيتهم الحنان
 « وحناناً من لدنا » .
 والحنان هو الزاوية المفقودة من حياة الناس .. فإذا وجدوها .. فقد
 وجدوا أعلى ما في الحياة .
 وكان يحيى .. قادراً على منح هذا الحنان للقاس .
 لأن الله منحه هذا الحنان من لدنه .. وأمره أن يفيضه على الناس .
 فهو يجلي الحنان .

يتلقى من الله .
ويُلقي إلى الناس .
وكيف لا .. وقد اختصه بذلك ؟
« وحناناً من لدناً » !؟
وإشارة أخرى .. أعلى وأسمى ..
ان من كان اسمه « يحيى » ..
فالفعل « يحيا » .. بصيغة المضارع يُفيد الاستمرار ..
أي استمراره حياً ..
فكيف يكون ذلك !؟
بأن يكون شهيداً ..
لأن الشهداء أحياء ..
« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً .
« بل أحياء عند ربهم يرزقون » .
إذاً فليستشهد .. يحيى .. ليحيا .. أبداً ! .
وهذا ما كان .. فقد قُتل يحيى ..
ليحيا .. يحيى ! .

لم نجعل ... له من قبل ... سمياً ؟...

يا أيها الخلق ...

تعالوا .. واسمعوا ..

هناك سرّ خطير .. خطير .. خطير ..

فقوموا جميعاً .. لتسمعوا !..

ان كلمة « حنانا » لم ترد في كتاب الله العظيم .. إلا مرة واحدة ..

وحيدة ..

في قوله عز من قائل :

« وحناننا من لدنا وزكاة وكان تقياً ، ؟! .

حناناً ؟! .

لم تتكرر في كتاب الله ! .

هذا هو السر الخطير ؟! .

وكاننكم تقولون : وأي سر هناك في هذا ؟! .

فأهتف بكم جميعاً : ألا فاعلموا أن السر في هذا ..

ان يحیی .. انفر د .. وحده بظهور الحنان .. من دون الأنبياء جميعاً ؟! .

وكاننكم تقولون : هذا غير صحيح .. فما من نبي إلا وآتاه الله حناناً ! .

وأقول : لا تمجلوا .. فإليكموا القضية .. غصّة طريّة ..

الأنبياء .. مرآيا .. تنعكس عليها صفات ربهم ..
أي .. مجالى .. تتجلى عليها .. أسماء الله الحسنى ..
ولكن هذا التجلي .. يقع عليهم بنسب متفاوت ..
وهذا هو مصدر التفاضل بينهم :

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » .

مع اتحادهم جميعاً .. في الأصل العام .. وهو كونهم مجالى .. للتجلي الإلهي .
فالنبي الخاتم ... والرسول الأعظم .. صلى الله عليه وسلم ..
أوتى من ربه .. أعظم نسبة من التجلي الإلهي عليه ..
فهو المرآة العظمى .. لتجلي الأسماء الحسنى كلها ..
ومن هنا كان أفضل النبيين .. وإمام المرسلين :
« وكان فضل الله عليك عظيماً » !

وباختلاف نسبة تجلي الأسماء الحسنى عليهم .. صلى الله عليه وسلم ..
يشتهر بعضهم بصفة ما .. مع اشتراكهم في الأصل العام ..
فموسى .. مثلاً .. كلم الله .. أي .. كانت نسبة تجلي صفة الكلام عليه ..
أكثر ..

« وكلمتم الله موسى تكليماً » !

ومن قبله .. إبراهيم .. مثلاً .. خليل الله .. أي الذي أتى نسبة أكثر من
الحب .. تؤهله لأن يتخذه الله خليلاً .. « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » !
وعيسى .. مثلاً .. روح الله .. أي الذي أتى نسبة أكثر من تجلي الروح
عليه .. « وروح منه » ..

حقى إذا جئنا الى النبي الخاتم .. صلى عليه الله وسلم ..

كان عليه السلام .. أوتى نسبة أكبر .. من سائر الأنبياء .. من تجلي جميع الصفات الإلهية .

فكان أرفع الأنبياء درجات .. وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .. فالأنبياء جميعاً .. يشتركون في كونهم جميعاً .. مجالى للأسماء الحسنى .. ثم يتفاوتون بعد ذلك .. في نسب التجلي .. من كل اسم من الأسماء الحسنى .. عليهم ..

فإذا تقرر تلك القضية .. انتقلنا الى .. يحيى .. عليه السلام . فوجدنا أمراً عجباً ! .

وجدنا أن الله يقول فيه : « وحناناً من لدنا » ففهمنا بالإشارة من ذلك .. أن الله تعالى اختص يحيى .. عليه السلام .. بنسبة أكبر من تجلي الإسم « الحنان » ..

فكان يحيى .. عليه السلام .. مظهراً أكبر .. لظهور صفة الحنان الالهي .. عليه ..

فيمكن أن يقال أن الصفة الغالبة على صفات يحيى .. وكل صفاته علمياً .. هي صفة الحنان ..

مع اشتراك جميع الأنبياء في تلك الصفة ..

إلا أن يحيى .. أوتى منها بنسبة أكبر .. فكانت فيه أظهر ! .

ومن هنا انفرد يحيى في الكتاب الكريم كله بقوله تعالى : « وحناناً من لدنا » ! .

ولإهمام الحنان .. إشارة الى انه حنان وراء العقول ..

ليس بالمكتسب .. ولكن « من لدنا » .. رأساً ..

نحن الله .. نتجلى باسمنا « الحنَّان » على عبدنا يحيى .. ليكون آية منفردة
يظهر تلك الصفة من صفاتنا ..

ومنى تجلى الله .. باسمه الحنَّان .. على عبده يحيى ..
امتلاً يحيى بالحنان ..

فأفاض من حنَّانه .. على كل من آمن به .. وكل من رآه .. وكل من
سمع اليه ..

حناننا .. يموج اليه موجاً ..

وحنانه .. يموج اليكم موجاً ..

فلما انفرد يحيى بـ « حنَّاننا من لدنا » .. أي كان الحنان هو الصفة الغالبة
على صفاته كلها ..

انفتح لنا سر جديد آخر .. من شخصية يحيى .. عليه السلام ..

هو : لماذا قال فيه « لم نجعل له من قبل سمياً » ؟!

أي لم نجعل ليحيى من قبل .. من يشترك معه .. في أن تكون صفة
الحنان هي الصفة الغالبة على صفاته ..

وإنما انفرد هو .. بظهور صفة الحنان فيه .. إذ قد آتيناه « حنَّاننا من
لدنا » .. فانفرد بها ..

إذاً لا مثل له من قبله .. في ظهور صفة الحنان فيه .. إذاً لا سمياً له من
قبل .. أي لا أحد يماثله في غلبة صفة الحنان ..

فإذا كانت البشرية إلى زكريا : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم
نجعل له من قبل سمياً » ..

كان المعنى .. بغلام ليس كمثل غلام .. في صفاته .. ليس له « سمياً » في
تلك الصفة .. صفة الحنان ..

سوف تختصه بتجلي صفة الحنان عليه .. حتى تكون هي الصفة الحاكمة
على كل صفاته ..

فهو يتكلم .. حناناً من لدنا ..

ويعمل .. حناناً من لدنا ..

ويدعو الناس اليها .. حناناً من لدنا ..

ويتحرك .. حناناً من لدنا ..

ويبشر الناس .. حناناً من لدنا .. وهكذا ..

كما كانت الصفة الغالبة .. على رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. صفة الرحمة
« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ..

فكانت كلماته .. وأفعاله .. وتوجيهاته .. كلها .. رحمة للعالمين .. صلى الله
عليه وسلم .. « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ..

وكذلك .. استبان السبيل .. سبيل سر ورود كلمة « حناناً » مرة واحدة
وحيدة بكتاب الله المجيد ..

إشارة الى انفراد من قبلت في شأنه .. وهو يحيى .. عليه السلام ..
بظهورها فيه .. وكونها هي الصفة الغالبة على صفاته ..

فلما انفرد بها .. كان هو الوحيد الذي تُنسب اليها ..

فلما انفرد بتجلي صفة الحنان .. بنسبة أكبر من غيره .. لم يكن له من
قبل سميّاً ..

« لم نجعل له من قبل سميّاً » ؟!

أي .. لم نجعل له من قبل شبيهاً .. يماثله في ظهور صفة الحنان ! ..

المسيح ... يصف ... يجيب ... ١٤

ثلاثة أوصاف ..

تتطابق تمام التطابق .. في وصف يحيى .. عليه السلام ..

أحدهما .. من الله .. تعالى ..

والثاني .. من المسيح .. عليه السلام ..

والثالث .. من أحد الصحابة .. رضي الله عنه ..

أما الذي من الله .. فقولته سبحانه :

« ... اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا » .

وأما الذي من المسيح .. عيسى بن مريم فقولته عن يحيى :

« أنبيأ ؟

« نعم أقول لكم وأفضل من نبي » .

« الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا

المعبدان » .

وأما الذي هو من الصحابة .. فهو ما قاله ترجمان القرآن .. ابن عباس ..

في تفسير قوله تعالى « سميا » ..

جاء في صحيح البخاري .. وما أدراك ما البخاري :

« قال ابن عباس : مثلاً » .

أي قال ابن عباس في تفسير قوله سبحانه « لم نجعل له من قبل سمياً »
أي مثلاً ..

أي : لم نجعل ليحيى من قبل مثلاً ! .

فما معنى هذا التطابق العجيب ؟ ! .

معناه خطير .. خطير .

يكشف أمراً على الغاية من الخطورة .

أمراً حارقاً فيه الأقدمون والمحدثون .

حتى قال الإمام العيني .. في شرحه الكبير « عمدة القاري .. شرح
صحيح البخاري » .

قال : « فان قلت : ما وجه المدحة باسم لم يسم أحد قبله ونرى كثيراً من
الأسماء لم يسبق اليها ؟ !

« قلت : لأن الله تعالى تولى تسميته ، ولم يكل ذلك الى أبويه ، فسماه باسم
لم يسبق اليه » .

وهذا الجواب من الإمام العظيم .. يدل على الحيرة في فهم الإشارة المكنونة
في قوله « لم نجعل له من قبل سمياً » ! .

ويكفي في الرد على الإمام الكبير .. أن يقول القائل : ان الله تولى تسمية
المسيح .. « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم » .. ومع هذا .. لم يقل
في وصفه « لم نجعل له من قبل سمياً » ؟ ! .

إذاً هناك سر عميق في اختصاص يحيى .. بهذا القول ! .

وهذا السر .. يكشفه لنا .. هذا التطابق العجيب بين الأوصاف الثلاثة .

الله يقول : « لم نجعل له من قبل سمياً » .

والمسيح يقول : « وأفضل من نبي لم يقيم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا » !.

وابن عباس يقول : « مثلاً » ! .
فما ذكره كتاب الله من قوله « سميا » .

فسره المسيح .. عليه السلام .. بقوله « أفضل من نبي » .. وقوله « لم يقيم أعظم من يوحنا » ..

وفسره ترجمان القرآن بقوله : « مثلاً » ! .

فتطابقت الثلاثة .. فكشف لنا تطابقها أن المراد بقوله « سميا » هو « مثلاً » ..

وهو عين ما أشار إليه المسيح .. عليه السلام .. « لم يقيم .. أعظم من يوحنا » ! .

وكان هذا جواباً للذين حاروا قديماً وحديثاً وسألوا : ما وجه المدح في تسمية يحيى باسم لم يسبق إليه .. وكأيتين من طفل سماه أهله باسم لم يسبق إليه ؟
وكان الجواب .. من عالم الإشارة .. لا من عالم العبارة .

وجه المدح .. أن يحيى جعلناه موجة منفردة .. بصفة يتفرد بها عن سائر الأنبياء .

فكان فريداً في تلك الصفة .. انفرد بها .. وظهرت به للخلق .

انظر الى الإشارة الى ذلك :

« يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً » ..

وكان سائلاً يسأل : كيف يارب لم تجعل له من قبل سمياً ؟ ! .

فيأتي الجواب فيما بعد .. « وحنانا من لنا » .

وهذا من عجيب بدائع هذا الكتاب !.

فيُفهم من يَمُنُّ اللهُ عليه بالفهم .. أن يجيى لا مِثْل له بين الأنبياء .. لأن
الله آتاه « حناناً من لدنا » .. فانفرد بها عن سائر الأنبياء .. فهو لا مِثْل له ..
« لم نجعل له من قبل سمياً » .

فهو كما وصفه المسيح .. عليه السلام ..

« أفضل من نبي ..

« لم يقم .. أعظم من يوحنا » !.

قتل ... زكريا ؟! ...

أعظم المصائب ...

أن تكون السلطة في أيدي الأوباش ..
وأعني بالأوباش أولئك الأراذل .. الذين يرتفعون إلى كرامي الحكم ..
وأولى بهم أن يكونوا في صناديق القمامة !.
وهؤلاء حين يتسلطون ويتسلطون .. فويل للناس مما سوف يكون !.
وسوف نرى في هذا الفصل .. كيف قُتل نبي عظيم .. بمجرد وهم قام برأس
أفك أئيم !.
فكيف كان ذلك ؟ !.

كان هناك عُتُلُ اسمه هيرودس .. توهم الخطر على مُملكه .. من مولد
طفل سيكون مَلِكًا .. فرأى بمبقريته الإجرامية أن خير وسيلة للحفاظ على
ملكه .. أن يأمر بقتل كل طفل حتى سن السنتين .. وبذلك يقطع السبيل
على أي طفل سوف يكون مَلِكًا .. فلا يتنازعه أحد في مُملكه !.

وكان أمر الطفل « يحيى » قد شاع وذاع في الناس .. فأمر بقتله ضمن
الأطفال الأمر بقتلهم .

ففرت به أمه اليصابات إلى الصحارى والجبال .

وجاء زبانية العتُل يسألون زكريا : أين ابنه !؟

فأخبرهم أنه لا يدري أين ذهب .

فكان جزاء زكريا .. أن يُقتل بين الهيكل والمذبح !.

هكذا فعل هيرودس ..

وهكذا يفعل الأوباش .. حين يرتفعون إلى السلطة ..

ومن هنا قلنا ان أعظم المصائب أن تكون السلطة في أيدي الأوباش ..

وسوف نرى فيما بعد .. كيف يُقتل يحيى .. النبي العظيم .. بناء على

رغبة راقصة !.

فأي مصيبة تصيب الناس .. هي أعظم من قتل الأنبياء ؟!.

ولكن هو حصادُ حكم المجرمين .. حين يحكمون !.

وإليك تفاصيل القصة الدامية الرهيبة .. قصة مصرع زكريا ..

عليه السلام ..

« ولما ولد يسوع في بيت لحم .. في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من

المشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود .

« فأننا رأينا نجمة في المشرق وأتيننا لنسجد له .

« فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع اورشليم معه .

« فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح .

« فقالوا له في بيت لحم ..

« لأنه هكذا مكتوب بالنبي » .

ان هيرودس يضطرب .. لا لأنه يرغب في المسارعة إلى الإيمان بالمسيح ..

ولكن يضطرب من أجل ملكه .. هذا ما يشغل بال المذكور !.

فماذا فعل المسمى هيرودس !؟

« حينئذ دعا هيرودس المجوس سرا وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر .

« ثم أرسلهم الى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي .
 « ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا أيضا وأسجد له .
 « فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذي راوه في المشرق يتقدمهم
 حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي .
 « فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا .
 « وأتوا الى البيت ورأوا الصبي مع مريم امه .
 « فخروا وسجدوا له .
 « ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبيا ولباناً ومرّاً .
 « ثم إذ أوحى اليهم في حلم ان لا يرجعوا الى هيرودس انصرفوا في
 طريق أخرى الى كورثم .
 « وبعد ما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا قم
 وخذ الصبي وأمه واهرب الى مصر وكن هناك حتى أقول لك .
 « لأن هيرودس مزع ان يطلب الصبي ليهلكه .
 « فقام وأخذ الصبي وأمه وانصرف الى مصر .
 « وكان هناك الى وفاة هيرودس » .
 الأحداث تتحدث عن المسيح .. عليه السلام ..
 هناك تدبير إجرامي من هيرودس ليتخلص من الأطفال حفاظاً على ملكه .
 وكما أخذ المولود عيسى ليلاً إلى مصر .. فراراً به من هيرودس ..
 فإن البصابت فرت بمولودها يحيى .. عليه السلام .. الى الجبال .. حتى
 لا يظفر به الزبانية وينجوه .
 مولودان .. عظيمان ..

أحدهما .. يفرون به إلى مصر ..
والآخر .. يفرون به إلى الجبال !
لماذا ؟!

لأنّ وهماً سيطر على رأس العتُل .. أن هناك طفلاً .. من هؤلاء المولودين
سوف ينتزع منه ملكه !

ولو علم المذكور .. أن هؤلاء عيسى .. أو يحيى .. لا يطلبون دنيا .. وإنما
جاءوا ليزهدوا فيها .. ما فعلَ ما فعل !
ثم ماذا كان من المسمى هيرودس ؟!

« حينئذ لما رأى هيرودس ان المجوس سخرُوا به غضب جداً .

« فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن
سنتين فما دون بحسب الزمان الذي تحقَّقه من المجوس ، !

منذجة يقيمها المجرم الأثيم .. أو قُل إجرام ما بعده إجرام ..

أن يُذَبِّح صغاراً رضعاً .. بدلاً من أن يعطف عليهم ويبتسم في
وجوههم البريئة . :

ولو قد ظفر خلالها .. بالصبي يحيى .. أو الصبي عيسى .. لذبحها تذييحاً !

فإنها كنا الهدف الرئيسي لتكتيكه القبيح !

والجريمة تزداد قبحاً وبشاعة .. إذا كانت واقعة على من لا يملك الدفاع
عن نفسه :

« اشتد غضبي على من ظلم من لا ناصر له سواي ، ! - أو كما قال - ونحن

يشند غضبنا على مثل هذا المجرم .. لأنه يأمر بذبح أطفال صغار .. تحرم
جميع الشرائع .. وجميع التقاليد البشرية مساسهم بسوء !

ولو قد أقام منذجة .. للرجال .. لقلنا ملكٍ يخشى الثورة على ملكه .

رغم أن ذبح الرجال لإجرام شديد ..
 إلا أنه لا يبلغ بشاعة وشناعة اجرام تذبيح الأطفال !.
 ومن قبلُ فزع موسى فزعاً شديداً .. حين رأى الخضر .. يقتل طفلاً ..
 وصاح به : « اقمْتَلتْ نفصاً زكية بغير نفص لقد جنت شيئا نكراً » .
 أي : مُنكراً .. وفعلت فعلاً غير معروف .. تتكوره الشرائع ..
 وتتكوره الطباع !.
 فزع موسى لقتل طفل واحد .. رغم أنه يعلم أن القاتل مأذون له ..
 لحكمة إلهية ..
 ورغم هذا .. فزع ولم يحتمل الفعلة !.
 « وأما الفلام فكان أبواه مؤمنين .
 « فخشينا ان يرهقها طفليانا وكفرا .
 « فأردنا ان يبدهما ربها خيراً منه زكاة وأقرب رحماً » .
 ثم يبين عملاق الحقيقة .. أن ما فعل ليس عن أمره .. وإنما عن أمر الله ..
 « وما فعلته عن أمري .
 « ذلك تاويل ما لم تستطع عليه صبراً » !.
 فكيف، وهيرودس هنا .. يقتل مئات الأطفال .. لا طفلاً واحداً ؟ !.
 ان البشرية كلها لتفزع فزعاً ليس كمثل فزع .. من تلك الجريمة الكبرى !.
 ولعلك الآن تقول معي : ان أعظم المصائب أن تكون السلطة في
 أيدي الأوباش .
 ولو كان هذا الهيرودس ذا عقل .. لبادر إلى هذين الصبيين الجليلين البريئين
 الزكيين المباركين المقدسين .. والتمس بركتها ونورها ..

ولكن شؤم إجرامه .. وظلمة إظلامه .. لحقته .. فأعتمه عن أي خير !
فهل وقف إجرامه عند تلك المذبحة .. مذبحة قتل الأطفال دون السننتين؟!
كلا .. انه ذهب إلى ما هو أدهى وأمرّ ..
انه اعتبر زكريا .. مسئولاً عن غياب ابنه الرضيع يحيى ..
ثم عاقبه على ذلك .. وأمر بقتله !.
هكذا .. يفعل المجرمون .. حين يحكمون ويتسلطون !.
أخبر الزبانية هيرودس أن طفلاً لزكريا .. لم يُقتل ..
فغضب المجرم .. وأمر بتهديد وتعذيب زكريا أشد العذاب .. حتى
يعترف أين أخفى الطفل؟! .
وعذب الزبانية .. نبيّاً عظيماً .. وشيخاً فانياً .. وما رعوا للنبوة
حرمة .. ولا للشيوخوخة وقاراً !.
يريدون منه أن يعترف .. ومن أين له الاعتراف .. وهو لا يعلم مكان
طفله .. ولا مكان أمه اليصابات؟! .
ان اليصابات بمجرد أن سمعت بما عزم عليه هيرودس من قتل جميع الأطفال
دون السننتين .. فرت برضيعها إلى البراري والجبال .. واختبأت به بعيداً عن
أورشليم وما حولها .. وما يجري فيها .
فزكريا لم يكذبهم .. لأن الأنبياء لا يكذبون .. ولكنهم لا يصدقون !.
وصبوا عليه التعذيب صباً .
ولم يظفروا منه بجواب يشفي غليلهم ..
وجاءوا الى كبيرهم يُهرعون ..
ونبأوه أن زكريا .. لا ينفع معه تهديد ولا تعذيب .

هنالك علا واستعلى .. ونفخ وانتفخ وأصدر اليهم أمراً ..
اقتلوا زكريا ..
« فقتل زكريا .. بين الهيكل والمذبح .
« قتل زكريا .. النبي ! .
« قتل زكريا .. الشيخ الذي تجاوز المائة ! .
« قتل زكريا .. في المحراب الذي طامسا عطره بأنفاسه الشريفة ..
وتراتيله المقدسة ! .
قتل زكريا .. في المحراب الذي نادته فيه الملائكة .
وترشش دمه الزكي .. شاهداً .. على اجرام المجرمين .
جريمة .. وأي جريمة هي أكبر من قتل الأنبياء ؟ ! .
جريمة .. وأي جريمة هي اعظم .. من قتل نبي .. وهو يصلي
في المحراب ؟ ! .
هكذا المجرمون حين يحكمون .. وكذلك يفعلون ! .
في المحراب ؟ ! .
يقتل زكريا ؟ ! .
ليتهم إذ قتلوه قتلوه في بيته .. أو في فراشه .
ولكن في المحراب ؟ ! .
في أقدس مكان من بيت المقدس .. بين الهيكل والمذبح ؟ ! .
اهدار لحرمة البيت المقدس ..
وإهدار لحرمة النبي ..
وإهدار لكل القيم والمقدسات ؟ ! .

واسمع ماذا قال المسيح .. عليه السلام :

« ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تبنون قبور الأنبياء
وتزينون مدافن الصديقين .

« وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء .
« فأنتم تشهدون على أنفسكم انكم ابناء قتلة الأنبياء .
« فاملأوا انتم مكياال آبائكم .

« ايها الحيئات اولاد الافاعي كيف تهربون من دينونة جهنم .
« لذلك ها انا ارسل اليكم انبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون
ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة .

« لكي ياتي عليكم كل دم زكيّ سفك على الارض من دم هابيل الصديق
الى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح .

« الحق اقول لكم هذا كله ياتي على هذا الجيل .
« يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين ، ..!

ولتفهم الأجيال .. ما شاء الله لها أن تفهم .. من كلام المسيح ..
عليه السلام ..

فإنه أفق أعلى .. ومستوى أرفع ..
فطوبى لمن أوتى فيه فهماً وعلماً !
ولنرجع الى قاتل زكريا .. ذلك الأفاك هيرودس ..
في أي تهمة قتل زكريا؟! .
لا تهمة .. وهذا ما يثير ضحك الأجيال !
التهمة والجريمة الكبرى .. أن زكريا .. لم يرشدهم الى مكان الطفل يحيى !

وكيف يرشدهم وهو لا يعلم مثلهم أين يحيى ؟! .
هذه هي التهمة .. التي استوجبت عند الأفك .. أن يُقتل زكريا ؟! .
ولكنهم الأوباش .. إذا حكموا .. وفعلوا ما شاءوا ! .
وماذا يريدون من الرضيع يحيى ؟! .
يريدون أن يذبحوه كما ذبحوا المئات ! .
لماذا ؟! . لأن المجنون هيرودس .. توهم وهماً ..
تحول عنده إلى عقيدة متسلطة على رأسه ..
أن لو ترك المولود الذي وُلِدَ .. سوف يكون مَلِكاً .. فسوف ينزع
منه مملكته ! .
إذا فليُذبح جميع الأطفال .. حتى سنتين ! .
حتى لا يفلت طفل يكون بدلاً منه مَلِكاً ! .
بجرد وهم ..
بجرد نبوءة سمعها .. من بعض الجوس ..
يُذَبِّح فيها الأبناء ! .
ويُقتل فيها الأنبياء ! .

يقيم ... في ... الصحراء ...!؟ ...

« إننا كل شيء ..

« خلقناه بقدر » ..

آية محكمة .. إذا ألقيتَ في بحارها .. السماوات والأرض .. لابتلعها
كأنها ذرّة واحدة !.

إنها ناموس .. جامع مانع ..

كل شيء ؟ !.

كل ما كان وما سيكون .. صغيراً أو كبيراً ..

خلقناه بقدر ؟ !.

أوجدناه .. بتقدير .. بتخطيط غاية في الإحكام والإبرام !.

ومن هذا الناموس .. ننظر ونتفكر .. لماذا جرت المقادير .. أن يُلقى
الرضيع يحيى .. الى البراري والجبال ؟ !.

لماذا لا ينشأ في أورشليم .. بين رياشها وبيوتها ؟ !.

لأن المطلوب إعداده .. ليكون ثائراً على تلك الأوضاع المتعفنة كلها ..

فتحتم أن يُنزع منها نزعاً .. وأن تتدافع الأحداث .. لتضطر والدته إلى
الفرار به بعيداً .. الى الجبال !.

ترتيب .. وتديير .. ظاهره العذاب .. وباطنه الرحمة والحنان ..

ولو نظرت ثم نظرت .. سير الأنبياء .. لوجدت في تاريخ أكثرهم ..

حوادث تدفعهم دفعاً إلى الصحراء .. بعيداً .. عن مفاسد المدن وعفوناتها ..

ويكفيك في هذا السبيل مثلاً ..
مثال موسى .. عليه السلام ..
جرت المقادير .. بحيث أُلجأته إلى الفرار .. إلى الصحراء .. بهيئاً عن
العاصمة ومفاسدها ..

« فقررت منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين » .
« فخرج منها خائفاً يترقب » !.

فظاهر الحادثة عذاب .. خوف .. واتهام بالقتل .. وفرار ..
ولكن باطنها الرحمة الكبرى ..

« وتناديته من جانب الطور الايمن وقربناه نجياً » !.

باطنها .. الرحمة الكبرى ..

تُودي : يا موسى .. إني أنا ربك ..

وكان ما كان .. مما تزدهم به حياة التكليم .. عليه السلام .. من
رحمات وعطايا !.

والحكمة من إلقاء الأنبياء .. إلى الهجرة إلى الصحراء .. أن ينشأوا في
صفائها ونقاها .. وبعدها عن عفونات المدنيات ونجاساتها !.

ثم يعودون من بعدها .. ليظفروا ما فسد في حياة الناس .

وهذا ما حدث بالنسبة إلى النبي .. يحيى .. عليه السلام ..

رُعب .. فزع .. أطفال تُذبح .. بحث عن طفل اسمه يحيى .. ليُذبح ..

كل ذلك .. أُلجأ اليصابات أن تحتضن وحيدها وفريدها وقرّة عينها ..
والذي جاءها بعد يأس يئس .. وتفر به إلى الجبال ليلاً .. وتختبئ به بين
المغارات والكهوف !.

هذا هو الظاهر .. الذي فيه العذاب ..
أما الباطن .. الذي فيه الرحمة .. فهو أن ينشأ الطفل في حرية تامة ..
في نقاء الصحراء .. وفطرة البراري .. وانطلاق الجبال ..
فلا سلطان لأحد عليه إلا الله !
ما من نبي إل رعى الغنم - أو كما قال -
ومعلوم أن رعي الغنم .. يكون في الجبال والمراعي والصحراء والبراري ..
ومكثت أمه به ست سنين في البرية ..
ثم توفاهما ربها .
وأصبح الطفل يتيمًا .. بل لطيمًا .. لا أم ولا أب ..
ولا أخت ولا أخ ..
وحده .. صغيراً ..
هنالك .. كُشف له الغطاء .. عن يتولاه ..
إنه .. وليّه ومولاه ..
ومن يكون غير الله ؟!
انظر .. كيف يُربي الله أنبياءه ؟!
النمط الطبيعي .. والدان يريان ولدهما ..
فليذهب الوالد .. ثم لتذهب الوالدة ..
وليترك الصغير وحده ..
لمن ؟ !
لنا .. إذا نحن الله ..
نحن نرعاه .. ونسقيه .. ونطعمه .. ونكسوه .. ونهديه .. ونعطيه ..

فكيف كان ذلك !؟

ألهمه ربه .. أن يطعم من عسل النحل .. الذي يسيل من شقوق الجبال ..

ولنعم الطعام عسل النحل ..

وأن يأكل .. مما يتيسر له من الجراد البري .

وأن يتخذ من جلود الأنعام التي ترعى من حوله كساء !.

رزق طيب طهور ..

ترعرع الغلام .. منه .. ونبت نباتاً حسناً !.

لا ينبغي أن تستهلك طاقات هذا الغلام .. في البحث عن الرزق ..

ان طاقاته أثمن من ذلك ..

انها ينبغي أن تخصص لنا ..

« وأتيناها الحكم صبياً » ..

ليكون من بعد نبياً ..

ينبغي أن يتفرع لنا .. من أجل ذلك خلقناه ..

يقول المسيح .. عليه السلام :

« لكن ماذا خرجتم لتنظروا .

« إنساناً لابساً ثياباً ناعمة .

« هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك .

« لكن ماذا خرجتم لتنظروا .

« أنبياء .

« نعم أقول لكم وأفضل من نبيّ .

« فان هذا هو الذي كتب عنه ها أنا ارسل امام وجهك ملاكبي الذي يُهيسء طريقك قدامك .

« الحق اقول لكم لم يقيم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المهدان « ! .

إنساناً لابساً ثياباً ناعمة ؟! .

لا تفتظروا أن يكون يحيى ذا ثياب ناعمة ..

لأن المترفين أعداء للحق .. لا يصلحون لحمل رسالات السماء ..

إنما .. هو نبيّ ..

هو ملاك .. هو روح ملائكية علوية قدسية في جسم بشر ..

يتقدم ظهور المسيح .. عليه السلام ..

ليهيسء الطريق أمامه ..

ليحدث انتقالاً من المادية المسيطرة على النفوس .. إلى الروحية السامية ..

فتتمدد بذلك نفوس الناس .. لتتلقى تعاليم المسيح التي هي روحية بحتة ..

ولو قد ظهر المسيح .. من غير أن يتقدمه زهد يحيى .. لشق على النفوس

فهم آفاقه الروحية البحتة ..

وإنما ليتقدم يحيى ظهور المسيح .. ليمهد النفوس للانتقال من المادية المظلمة

إلى الروحية المضيئة ..

« الذي يُهيسء طريقك قدامك « ! .

إنها عملية تدرج بالمجتمع من ظلمات المادة .. إلى نور الروح .. « وروح

منه « ! ..

فالمطلوب أن يكون يحيى .. ملاكاً ..

ولكن الملاك لا يستطيع الناس أن يفيدوا منه .. لأنه مخالف لطبيعتهم .
« ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً » .
إذاً يكون يحيى .. فيه صفات الملائكة « وحنانا من لدنا .. وزكاة ..
وكان تقياً » ..

ولكنه بشر .. ليستطيع أن يفهم عنه الناس ..
ويهيء الطريق أمام مفاهيم المسيح ! .
ولتكن حياة يحيى من حيث الجسد .. مجرد الضروري لحفظ جسده ..
ومنعه من الهلاك ..

لقيات .. جرعات من غسل ..

« كن في الجبال يؤويه ..

جلود الأنعام يلبس منها وهذا يكفيه ..

لا ضرورة أن تكون له زوجة .. « وحصورا » .. لا لمجزه عن إتيان
النساء .. فقد كان شاباً على أقوى ما يكون الشباب .. ولكن الغلبة الصفات
العليا .. الصفات الروحية عليه .. حتى جعلته راهباً نبياً ..

« وكان يوحنا يلبس وبر الابل .

« ومنطقة من جلد على حقويه .

« ويأكل جراداً .

« وعسلاً برياً » ! .

هذه ملابس يحيى ..

وهذا طعام يحيى ..

قال ابن الأثير :

- « قيل : انه قال له يوما الصبيان امشاله : يا يحيى اذهب بنا نلعب .
 » فقال لهم : ما للعب خليةت .
 » وكان يأكل العشب وأوراق الشجر .
 » وقيل : كان يأكل خبز الشعير .
 » ومرّ به ابليس ومعه رغيف شعير فقال : أنت تزعم انك زاهد وقد
 ادخرت رغيف شعير؟!
 » فقال يحيى : يا ملعون هو القوت .
 » فقال ابليس : ان الأقل من القوت يكفي لمن يموت .
 » فأوحى الله اليه : اعقل ما يقول لك ، ! .
 ويقول ابن الأثير :
 » ونسبني صغيراً .
 » فكان يدعو الناس الى عبادة الله .
 » ولبس الشعر .
 » فلم يكن له دينار ولا درهم .
 » ولا مسكن يسكن اليه ، أيتا جنة الليل-أقام .
 » ولم يكن له عبد ولا أمة .
 » واجتهد في العبادة ، فنظر يوماً إلى بدنه وقد نخل فبكى .
 » فأوحى الله اليه : يا يحيى أتبكي لما نخل من جسمك؟ . وعزتي وجدائي
 لو اطلمت في النار اطلعة لتدرعت الحديد عوض الشعر .
 » فبكى حتى أكلت الدموع لحم خديه ، وبدت أضراسه للناظرين » .

أقاصيص رواها ابن الأثير .. في كتابه الخالد « الكامل في التاريخ » ..
وموقفنا منها .. لا نصدق .. ولا نكذب ..
فإن صدقناها ... فإنها هي أضواء في الطريق ..
وإن كانت غير حق .. فلو حذفناها من الموضوع .. فهي لا تقدم
ولا تؤخر ..
فإن كتاب الله ... رسم الخطوط العامة من شخصية يحيى .. عليه السلام ..
بما هو أشمل وأكمل .. وأصدق قليلاً ؟!
« ومن أصدق من الله حديثاً » ؟!

يا يحيى ... فذ !؟ ...

لست أدري ...

لماذا .. أحبُّ يحيى ١٢.

فالفرض ... على كل مؤمن .. أن يحب الأنبياء جميعاً ..

ولكن يحيى .. قد شغفنيُ حُبّاً ١٢.

أحبه .. لأنه وُصف بوصف .. تفرد به (لم نجعل له من قبل سمياً) .!

فكيف كان هذا الغلام .. حين نُودي : يا يحيى خذ ، ١٢.

كان صبيّاً ١٢.

« وآتيناه الحكم صبياً » .!

استعداد ليس كمثلته استعداد ..

وإمداد ليس كمثلته إمداد .!

والذي يميل اليه قلبي .. أن يحيى نبيء صغيراً ..

وليس هذا بالشيء في قدرة الله .. والإشارة إلى ذلك مكنونة في قوله

سبحانه « كذلك قال ربك هو عليّ هين » ..

فما نبوة يحيى صغيراً .. بأعجب من خلقه من أبوين مستحيل أن يكون

منها إنجاب ..

وليكون يحيى آية في مولده .. وآية في نبوته ..

وعجيب أن يعجب الناس من قدرة الله ..
ومعلوم ان القادر القدير المقتدر .. هو على كل شيء قدير !؟
عقولنا قد عقلتنا .. فلم نستطع أن نفهم أعماق .. ان الله على كل شيء قدير !
وأى غرابة أن يُنبأ يحيى صغيراً .. وقد نُبئ عيسى صغيراً .. « ويكلم
الناس في المهيد » !؟

وهل الكلام الحكم .. من المولود لساعته .. إلا طلائع نبوة !؟

هل مثل هذا :

« اني عبد الله .

« آتاني الكتاب .

« وجعلني نبيا » ..

هل يكون مثل هذا الإحكام .. من مولود .. إلا طلائع نبوة !؟

بل .. وهذا من بديع .. إشارات الكتاب .. قد تولسى المولود .. الرد
على المتعجبين أن يُنبأ الصغير .. حين قال « وجعلني نبيا » !؟ :

كأنه يريد أن يقول : أنا من الآن نبياً !

سبحانك اللهم .. ما أعظم ما يحوى كلامك من إشارات !؟

كيف يكون عيسى نبيا .. وهو مولود لساعته !؟

فنقول : بل قد كان نبيا .. قبل أن يُولد .. فلا تهجوا .. وإنما هي مواقيت
يخرج فيها صبياً .. فلما كذبوها واتهموها .. نطق بالحق من أمر والدته المطهرة
ثم أذاع في تلك المناسبة .. بدايته ونهايته .. وكل رسالته .. مقدماً .. على
الناس .. ليكون الحجّة الأولى عليهم :

« قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا .

« وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا .
« وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا .
« والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » ! .
نبئني بربك .. ماذا بقي من جميع حقيقة المسيح .. وحقيقة رسالته
بعد هذا البيان ؟! .
اللهم لا شيء .. إلا وقوع ذلك فيما بعد .. في موعده .. تفصيلا بعد أن
أذيع ما هنا إجمالاً ! .
ولذلك كانت الآية التي تأتي بعد ذلك مباشرة :
« ذلك عيسى ابن مريم » ! .
أي ذلك كل شيء عن عيسى ..
أنطقناه به .. مولوداً .. بقدرتنا ..
ليسجل مقدماً .. وقبل أن نبعثه الى الناس « كهلا » حقائق
أمره ورسالته ..
« ويكلم الناس في المهد وكهلا » ! .
فكلامه في المهد .. طلائع نبوة ..
وكلامه كهلا .. تحقق نبوة ..
وإنما اقتضت حكمة الله .. أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ..
وعقولنا لا تطيق أن يكون النبي الذي يدعونا إلى الله .. طفلاً ..
وإنما نريده رجلاً .. لأن النواميس التي تسري فينا .. أن الأطفال
لا يعقلون ..
فرحمة بنا نحوطينا من رجال أنبياء ..

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم » ..
تنزلاً إلى مستوى أفهامنا .. حتى لا تكون فتنة ونتسارع إلى التكذيب ..
كما كذب هؤلاء وقالوا :

« .. كيف نكلم من كان في المهد صبياً » ؟!

إنها مقتضى الرحمة .. مقتضى التنزل الى ما يستطيع البشر أن يفهموه ..
أما القدرة .. فتقول : لو شئنا لبعثنا أطفالاً .. ينطقون بالحق المحكم ..
الذي سوف ينطقون حين نبعثهم كباراً .. ولكن الناس يكذبون .. فرحمنام ..
وأرسلنا إليهم رجالاً !

ولقد أعطانا الله مثلاً جميلاً .. في عيسى .. عليه السلام ..
حين كلمت الناس .. في المهد .. بكل ما سوف يقوله لهم .. رجلاً !
وهذا باب عريض .. أخصنا إليه .. إشارة من بعيد بعيد .. الى
بدائع القدرة ..

فلا غرابة أن يُدبأ يحيى صغيراً ..

وأن يخاطب صغيراً : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » !

وأن يفهم يحيى .. صغيراً الخطاب ..

يفهمه من لدنه .. لا من نفسه ..

ويوحى إليه الله ما يشاء ..

ويعلمه الكتاب .. كله .. التوراة .. وكل تراث الأنبياء من قبله .. ويوجهه
إلى أخذ الكتاب بقوة .. بعزم الأنبياء .. صغيراً ..

حتى إذا شب .. كان مهيناً لأداء ذلك إلى الناس ..

فإذا عجب الناس .. كيف يأتي ذلك لصغير .. كان الجواب هو
بقية الآية :

« وأتيناها الحكم صبيا » .. أي أتيناها النبوة صغيراً .. وأتيناها الكتاب صغيراً .. وأتيناها الفهم صغيراً .. تمهيداً لقيامه بأداء ذلك إلى الناس كبيراً ..

وكان ذلك تنزلاً .. ورحمة بمقول الناس ..

ولكن القدرة تقدر أن تبعثه صغيراً .. وتنطقه بمنطق الأنبياء صغيراً .. كما قد أريناكم في نطق المسيح .. في المهد صبيا !

فلا تعارض إذاً .. ولا إشكال بين من قال « أتيناها الحكم صبيا » أي فهم التوراة صغيراً .. وبين من قال « أتيناها الحكم صبيا » أي النبوة صبيا ..

وإنما المعنى الشامل المتكامل .. أعدناه للنبوة والكتاب والعمل بالكتاب بقوة صغيراً .. وأمرناه بأداء ذلك ودعوة الناس إليه كبيراً ..

واعلم أن أحوال الأنبياء . لا تقاس بالمعقول . وإنما تفهم بالتسليم ..
« فاخلع نعليك .

« إنك بالواد المقدس طوى » !

شخصية ... يجيب ... ١٩

فتح جديد ...

في هذا الباب .. من هذا الكتاب ..
من به .. المنستان .. الوهاب !.

وهذا الفتح خلاصته استخلاص .. شخصية يحيى .. عليه السلام .. من
مقبعين اثنين ..

دعاء زكريا .. عليه السلام ..

واستجابة الله .. لدعاء زكريا .. « فاستجبنا له » ..

أي العناصر التي حددها زكريا .. في دعائه ..

والعناصر التي حددها الله سبحانه في الاستجابة لذلك الدعاء ..

باب جديد .. طريف غاية الطرافة .. في تحليل الشخصية ..

وزيده جمالاً .. أنه مسجل في كتاب الله الكريم ..

وما سجله الكتاب فهو الحق الذي لا شك فيه !.

والآن ندخل .. الى المنبع الأول وهو الخطوط العريضة .. من شخصية

يحيى .. كما حددها دعاء زكريا .. المسجل في كتاب الله ..

١ - واني خفتُ المواليَ من ورائي .

زكريا يخاف الورثة .. يخاف رجال الكهنوت من بعده .. لأنهم غير أمناء

على الأمانة .. فهو يريد غلاماً أميناً .. يحمل النبوة من بعده .. هذا عنصر ..

٢ - فهب لي من لذك ولينا .

رأساً .. منك .. لأن الوالد والوالدة ميثوس منها .. هب لي من يلي هذا الأمر من بعدي .. وارثاً يرثني ..

٣ - يرثني ويرث من آل يعقوب .

يرث عني النبوة .. ويرث الصفات العليا .. ويرث كذلك جميع التراث الذي تركه الأنبياء من قبلي .. من يعقوب .. حتى زكريا .. أي جميع تراث بني اسرائيل .. يوسف .. موسى .. هارون .. داوود .. سليمان .. أيوب .. يونس .. وهكذا ..

أي شخصية جامعة .. أوتيت القدرة على استيعاب ذلك كله ..

٤ - واجعله رباً رضيعاً .

في أعلى قسم الرضا عنه .. والرضا منه .. الله يرضى عنه أتم الرضى .. وهو يرضى الله أتم الرضى .. أي يستكمل صفات الكمال ..

فالعناصر التي حددها زكريا في دعائه لشخصية الغلام الذي يرجوه هي :

١ - انتقال النبوة اليه .. وليس الى هؤلاء الكهان الذين فرطوا في الامانة .

٢ - ان يوهب هذا الغلام من لدن الله .. لا بالناموس الطبيعي .. لأنه عاقر وزوجه عاقر .

٣ - ان يرث هذا الغلام النبوة عن زكريا .. والتراث الموروث عن الانبياء من قبله .

٤ - أن يكون هذا الغلام .. في قمة الكمال .. كمال الأنبياء .

أي أنه حدد الخطوط العريضة في تصويره للغلام .. بالآتي :

نبي .. عظيم .. تنتشر عظمته رغما عن رجال الكهنوت المتخصصين
للكهنوت .

فتنتقل الرسالة اليه .. رغبا عنهم .. بارادة الجماهير التي تملقت قلوبهم
به .. لما يحسونه منه من صدق وإخلاص لا يجدونه في رجال الكهنوت
التقليديين .

اي رجل ثورة تكتسح عفونات الكهنوت .. وتكتشف زيفها امام الجميع !
وهذا ما قد كان .

فقدت المقادير .. بالطفل بعيدا عن اورشليم .. وكهنوتها .
وانبثتته في البرية والجبال ..

فنشأ مجردا من التقاليد .. هيرنا من ضغوط المجتمع .
وباعدت بينه وبين ملابس الكهنوت التقليدية .

وانما يلبس من وبر الابل .. ويتمنطق بالجلود .. ويأوى الى الكهوف !
ومن الحتم ان يكون قائد الثورة الجديدة .. على الأوضاع الدينية
الفاصلة هكذا !

ومن البرية .. صرخ صوت .. فجعل ودوى .

كما اشتهر عن يحيى .. « صوت صارخ في البرية » !

وتزداد الجماهير تعلقا بهذا الصوت الصادق الجديد .. ويزداد إعجابها
ورضاها عنه .. كلما ازداد زهدا في الدنيا .. وسموا الى اعلى .. ازداد حب
الجماهير له وإعجابا به وهذا معنى « واجعله رب رضيا » .. يرضى عنه
المحبون له أتم الرضا .. لما يشهدون من سموه ورقية وكماله !

هذه عناصر .. شخصية يحيى .. كما حددها دعاء زكريا ..

فهل جاء يحيى .. طبق الأصل من تحديد دعاء زكريا ..

نعم .. بنص القرآن « فاستجبنا له .. وهبنا له يحيى .. وأصلحنا له زوجه » .

أي فآتيناها كل ما طلبه ..
لماذا !؟ .

« انهم كانوا يسانعون في الخيرات .
« ويدعوننا رغبا ورهبا .
« وكانوا لنا خاشعين » .

كانت هذه صفات زكريا .. وصفات زوجه اليصابات ..
ومن أمواج هذه الصفات العليا .. كانت صفات المولود لها .. العليا ..
وجاء يحيى طبق الأصل .. من صفات أبويه ..
وطبق الأصل .. من عناصر دعاء والده ..
فما دليل ذلك !؟ .
الدليل .. ما سجله الكتاب الكريم ..
وعناصر شخصية يحيى .. التي وردت في تسجيل استجابة الله لزكريا ..
في قوله سبحانه :

« .. أن الله يشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله .
« وسيبدأ .

« وحصورا .

« ونبيا من الصالحين » .

وفي قوله سبحانه :

- « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى .
« لم نجعل له من قبل سميا » .
وقوله سبحانه :
- « يا يحيى خذ الكتاب بقوة .
« وآتيناه الحكم صبيا .
« وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا .
« وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا .
« وسلام عليه يوم يولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » .
- هذه هي جميع الخطوط العريضة .. من شخصية يحيى .. كما سجلها
كتاب الله العظيم .. وكما سجلتها البشرية الى زكريا ..
- وما هي تلك العناصر العلى :
- ١ - مصدقا بكلمة من الله ..
أي مصدقا بالمسيح ابن مريم .. عليه السلام .. الخلق بكلمة من الله ..
كن فيكون .. من غير أب ..
- مصدقاً بالمسيح .. ومبشراً به .. وداعياً إلى الإيمان به ..
- ٢ - وسيّداً ..
وعظيماً ليس كمثل عظيم .. يعملو على أهل زمانه ولا يُعلى عليه ..
سيعترف له الجميع بالعظمة والإمامة ..
- وقد كان يحيى هكذا .. تتوافد اليه الجموع لتستمع اليه .. ويعظمه من
أحبه .. ويهابه من عاداه ا .
- ٣ - وحصوراً ..

يُحصر نفسه عن الشهوات كلها .. ويحبسها عن الدنيا .. حقيق عن النساء
اللاتي أحلن الله ..

مثلاً أعلى .. في حبس النفس عن جميع الشهوات ..

٤ - ونبياً ..

آتيناه النبوة .. وأعطيناها اليه .. بصفتها العلى .. وأحوالها الشريفة ..
التي لم يذوقها من الناس .. إلا الأنبياء ..

٥ - من الصالحين ..

من أعلى مراتب الصالحين ..

من الكاملين في الصلاح ..

من الصالحين .. أن يُقتدى بهم .. في أمورهم كلها .

٦ - لم نجعل له من قبل سمياً ..

ليس له مثل في الأنبياء الذين جاءوا من قبله ..

سينفرد بشخصية جديدة .. غير مكررة ..

سيكون صوتاً جديداً .. ونغمماً فريداً .. لم يُرثقل من قبل ..

٧ - يا يحيى خذ الكتاب بقوة ..

نفذ كل ما في التوراة .. وما أوحينا إلى الأنبياء من حولها .. بعزيمة

خارقة .. لا يستطيعها إلا أنت .. لتكون للناس أسوة .. وإماماً ..

٨ - وآتيناه الحكم صبياً ..

آتيناه الاستعداد للنبوة صغيراً .. فكان أبرع أهل زمانه حفظاً للتوراة

والشرائع وفهماً لأسرارها .. واستنباطاً لأحكامها .. وداعياً إلى تنفيذها

بروحها لا برسومها بغير تغافل إلى حقائق التشريع ..

٩ - وحنانا من لدنا ..

انفرد بظهور الحنان فيه .. من دون الأنبياء من قبله ..
فما رآه أحد إلا أحبه .. لمسايلمسه في شخصيته الجديدة .. من حنان
عظيم .. يفيض على من رآه أو سمعه أو خالطه !

١٠ - وزكاة ..

ورُقيًا .. كان راقياً جداً .. رُقيًا يشير إعجاب الجميع ..

١١ - وكان تقياً ..

على الغاية من التقوى .. ليس أحد في عصره هو أتقى منه .. يخاف ربه
أشد الخوف .. ويهابه ويخشاه في علانيته وسره ..
وخوف الانبياء .. ليس كمثل خوف !

١٢ - وبراً بوالديه ..

على الغاية من البر بوالديه .. وأعظم البر بوالديه .. أن يواصل ما كان عليه ..
من برٍّ وخيرات .. فقد كان على صفاتها وزيادة ..

١٣ - ولم يكن جباراً ..

هو منكسر لربه .. ليس فيه أدنى من ذرّة من كبر أو استعلاء ..

والانبياء منكسرون لربهم أبداً ..

وهذا سر عظمتهم عند ربهم ..

يستحيل أن يكون يحيى جباراً .. لأنه كان « حناناً » ..

ومن كان « حناناً » لا يكون قط « جباراً » ..

لأن هذه تضاد تلك !

١٤ - عصياً ..

ولم يكن قط .. عصيًا ..
لم تصدر عنه معصية قط ..
وهذا شرف يتيه به يحيى .. أستغفر الله .. بل لا يتيه .. فالأنبياء منزهون
عن التيه !.

١٥ - وسلام عليه يوم ولد ..
سيولد يحيى أمواجاً من سلام ..
سيخرج من بطن أمه .. سلاماً للعالمين ..
سيكون موجة سلام .. تدعو إلى السلام ..

١٦ - ويوم يموت ..
وسلام عليه يوم يموت .. سوف يموت .. في مرتبة .. ودرجة ..
وموجة السلام ..

١٧ - ويوم يبعث حياً ..
وسلام عليه .. يوم يُبعث حياً ..
هنالك سيكون يحيى .. في الانبياء .. ضمن موجهم .. موج السلام ..
سيولد يحيى .. سالماً من كل نقص ..
وسيموت سالماً من كل نقص ..
وسيبعث سالماً من كل نقص ..
فهو في الكمال مولوداً .. وفي الكمال حين يموت .. وفي الكمال حين يبعث ..
سبعة عشر عنصراً من عناصر .. شخصية يحيى .. سجلها كتاب
الله العظيم ..

فكانت هي الخطوط العريضة .. لشخصيته الفريدة .. القدة .. المنفردة
عن غيرها من شخصيات الأنبياء ..

منها عناصر هي طبق الأصل من العناصر التي حددها زكريا في دعائه ..
وكان حتماً أن تكون كذلك .. لأنها تحقّقاً لقوله سبحانه « فاستجبنا له » ..
ومن هنا عناصر لم ترد في دعائه .. بل لم تخطر على بال زكريا حين دعائه !
فما سر ذلك ؟

سره .. ان تلك العناصر .. هي من مقام « وزيادة » أي استجبنا له في كل
مطالبه .. وزدناه في يحيى ما لا يخطر على باله .. لأن بال البشر محدود ..
وعطاء الله لا محدود ..

استجاب الله لزكريا .. في رجاؤه كله ..

ثم تجلّى بمنته .. وفضله .. وكرمه .. وجوده .. فزاده ما شاء من العطايا
في يحيى ..

فجاء يحيى .. تحقّقاً للخطوط التي تصورها والده زكريا ..

ثم زاده الله حسناً .. فأعطى ما أعطى .. وما أدراك ما أعطى ؟
ما لا خطر على قلب بشر ..

ولا على قلب زكريا ..

وتلك سنة الكريم سبحانه .. مع أحبائه ..

إذا أعطاهم .. أعطاهم ما سألوا .. ثم زادهم ما لم يسألوا .. ولم يخطر
على قلوبهم !

« للذين أحسنوا الحسنى

« وزيادة » !

« لهم ما يشاءون فيها .

« ولدينا مزيد » .
لهم ما يشاءون ؟! .
ودائماً .. لدينا .. مزيد ! .
نفاجشهم به .. زيادة سرور لهم ..
ولولا أن يكون هذا الكتاب .. كتاباً طويلاً ..
لفصلتُ لك الأمر تفصيلاً ..
فذكرنا لك ما جاء في العناصر السبعة عشر .. مطابقاً للعناصر التي
طلبها زكريا ..
وما جاء زيادة عليها ..
كان لسان القدرة يريد أن يقول :
يا زكريا .. إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً .
سألتنا غلاماً .. حسب تصورك .. ولنعم التصور .
ولكن دعنا نحن نصوره أحسن تصوير .. وليس كممثل تصويرنا تصوير .
وكان لسان زكريا يسأل : فكيف يكون إذاً يا رب ذلك الغلام ؟!
وكان لسان القدرة يقول : يا زكريا .. تلقيت البشرى بقولك : أنى
يكون لي غلام .
فالآن تشهد .. أننا قادرون .
ليس فقط على أن نهبك غلاماً .
ولكن غلاماً « لم نجعل له من قبل سمياً » ! .

من لدفك ... من لدنا ؟! ...

قلنا ...

ان يحيى .. جاء تحقّقاً للعناصر التي طلبها زكريا .. في دعائه ..
مضافاً اليها .. عناصر أخرى .. من الله .. لم تخطر على بال زكريا ..
وأن الأوصاف التي وردت في البشري بيحيى .. تحوى ما طلب زكريا ..
وما زاده الله عليها .

وها هنا سؤال جميل : مثل ماذا هذه الزيادة ؟!

فنقول مثل هذا ..

طلب زكريا في دعائه : « هب لي من لدنك وليا » .
والمفتاح في كلمة « من لدنك » !.

من لدنك .. بغير قانون الأسباب والمسببات .. بغير ناموس التناسل
المألوف .. كلانا عاقر .. أنا وهي .. وكلانا بلغ من العمر عتياً .. أنا وهي ..
فلوطبقت علينا قانون التناسل .. فهناك استحالة .. والنواميس جامدة ..
لا يبدلها ولا يحولها إلا أنت .. إذا .. من لدنك .. أنت الذي يملك هذا وحده
ولا يوجد أحد على الإطلاق يملك هذا سواك !.

أنت المَلِك .. وأنت المَلِيك .. وأنت الفعّال لما يريد .. وأنت الفعّال لما
يشاء .. فلا يقدر أن يهب لي غلاماً .. وأنا وهي على ما نحن عليه من موانع
العُقر والكِبَر .. إلا أنت .. فتحتّم أن يكون هذا .. « من لدنك » .. إذا
قلت .. 'كن .. فحتّمًا هذا الغلام .. يكون .

ها هنا المفتاح .. في هذه .. في « من لدنك » .
 هناك يقين من زكريا .. أن هناك حتمية أن يكون الغلام من لدنه سبحانه .
 فماذا كان؟! . استجابة تامة لزكريا .
 طبق الأصل لما حدد في مطلبه :
 « يا زكريا إنا نبشرك بغلام » ! .
 طلبت أن نهب لك غلاماً .. من لدنا .. فخذ يا زكريا غلاماً .. من لدنا .
 من غير النواميس التي أجريناها في جميع الناس .
 من لدنا .. كما طلبت وكما رجوت ! .
 حتى هنا تحقق ما طلب زكريا .
 فأين الزيادة .. على ما طلب؟! .
 ها هي الزيادة :
 « وحنانا .. من لدنا »؟! .
 زكريا طلب غلاماً فقط من لدنه .
 فأعطاه الغلام .. وزاده من لدنه .. حناناً ! .
 وهذا ما لا خطر على قلب زكريا ! .
 أقصى ما كان يأمل زكريا .. أن يُنزل الله عليه بغلام .. أن يخرق له
 النواميس في هبة غلام لعاقرين بلغا من الكبر عتياً .
 ولكن الكريم .. الأكرم .. إذا وهب .. وهب بنسبة كرمه الذي
 لا يتناهى ..
 فوهب له غلاماً .. وزاده « حناناً » .. من لدنه .. لا يتناهى ..
 فجاء الغلام .. من مرتبة « من لدنك » ..

لا كما حدثه زكريا ..

ولكن كما أكرمه ربه .. « وحناننا من لدنا » !.

ما كان زكريا .. يدري أن الله سيكرمه ذلك الإكرام ..

وما كان يطمع أن يزيده تلك الزيادة العظمى ..

ولو قد بثّ شمه ربه بقوله « يا زكريا إنا نبشرك بكلاماً .. ووقف عند هذا .. لخبر زكريا ساجداً لفوره .. شكراً على جسيم النعمة أن خُرقت له النواميس .. وكان هذا فضلاً عظيماً ..

ولكن الكريم .. لا نهاية لكرمه ..

تسألنا يا زكريا غلاماً ..

فخُذ غلاماً .. ومعه إكراماً ..

خُذ .. معه .. مصداقاً بكلمة من الله .. هل كنت تدري شيئاً عن هذا ؟!
سيكون هذا الغلام أول من يُصدق بالمسيح .. فهل تعلم شيئاً عن هذا ؟!
ألا فاعلم ..

خُذ .. معه .. وسيداً ..

خذ .. معه .. وحصوراً ..

خذ .. معه .. ونبياً ..

هل ذهب بالك إلى شيء من أولئك ؟!

خذ .. مع الغلام .. لم نجعل له من قبل سمياً .. هل طلبت شيئاً من هذا ؟

خذ .. معه .. وأتيناك الحكم صبيها .. هل كنت تدري أن هذا الغلام

سنؤتيه النبوة صبيها ؟!

ثم خذ .. معه .. ما هو فوق ما تتمنى .. ووراء ما تتصور .. وحنانا من
لدا .. هل خطر على بالك .. ذلك ؟!

وخذ .. معه .. من لدا .. كذلك .. وزكاة .. وكان تقيا .. فهل طلبت
أن نهب للغلام زكاة من لدا .. وتقوى من لدا ؟!

ثم خذ الغلام ومعه مسك الختام .. وسلام عليه يوم ولد .. ويوم يموت ..
ويوم يبعث حيا .. هل طلبت منا هذا .. أو حتى خطر على قلبك شيء
من هذا ؟!

يا زكريا .. إنما أنت بشر .. وما طلبته هو أقصى ما يتصور البشر .
وإنما نحن الله .. نعلم بما لا تعلمون .. ونفعل ما نشاء ..

ولقد أردنا .. عبدنا يحيى .. كما شئنا .. نحن .. لا كما شئت أنت ..

ليكون يحيى .. آية .. « من لدا » ..

لك .. وللناس ..

ألم تقل : « رب اجعل لي آية » ؟!

فها هو .. يحيى .. آية !

يجيبى ... كما يراه ... ابن العربي ١٤ ...

كما هو الأسلوب ...

في « حياة داوود » و « حياة سليمان » و « حياة أيوب » .. نثبت في « حياة يحيى » ما قاله ابن العربي .. في كتابه « فصوص الحكيم » عن يحيى .. عليه السلام ..

مع التنبيه .. أن ما يذهب اليه الإمام الأكبر .. إنما هو رأي .. فمن شاء أن يستضيء به فقد فاز .. ومن شاء أن يُعرض عنه فلا تثرِب عليه .. لأن علم الأذواق لا يدركه إلا القليل ..

فص حكمة جلالية في كلمة يحيوية

قال الشارح :

« إنما خصت الكلمة اليحيوية بالحكمة الجلالية ..

« لأن الغالب على حالة أحكام الجلال ، من القبض والخشية والحزن والبكاء والجد والجهد في العمل ، والهيبة والرقّة والخشوع في القلب .

« فمشربه من حضرة ذي الجلال فكان دائماً تحت القهر .

« وقد خدت الدموع في خده أخاديد من كثرة البكاء .

« وكان لا يضحك إلا ما شاء الله .
« وكل ذلك من مقتضيات حضرة الجلال والقيام بحقها .
« ولذلك قُتِلَ في سبيل الله .
« وقتل في دمه سبعون ألفاً حتى سكن دمه من فورانه » .
قال الامام الأكبر :

« هذه حكمة الأولوية في الأسماء ، فان الله سماه يحيى ، أي يحيى به
ذكر زكريا ، » .

« الأولوية : صفة لشيء يكون بها أولاً ، والأولية في الأسماء أن يكون
أول اسم سمى به لقوله :
(- لم نجعل له من قبل سمياً -) » .

« وقد جمع الله فيه بين العلمية والوصفية على خلاف العادة ، لأنه لما طلب
زكريا من ربه وارثاً يرث النبوة والعلم منه ويحيى به ذكره ، أجاب دعاءه
بخرق العادة ، إذ وهبه بين شيخ وعجوز خاص .

« وسماه يحيى جمعاً بين الوضع والمفهوم ، وهو ان يحيى به ذكره من باب
الإشارة ولسانها ، قدمة في تسميته لخرق العادة بوجوده لأحد قبله بين التسمية
والإشارة الى الوصف .

« عناية من الله بزكريا ، اختصاصاً إلهياً وتشريفاً ، كما ذكر في قوله » :

« فجمع بين حصول الصفة التي فيمن غير » .

« أي مضى » .

« من ترك ولداً يحيى ذكره وبين اسمه بذلك فسماه يحيى ، فكان اسمه
يحيى كالعلم الدوقي » .

« فان آدم عليه السلام حيى ذكره بشييت .
« ونوحا حيى ذكره بسام .
« وكذلك الانبياء عليهم السلام .
« ولكن ما جمع الله لأحد قبل يحيى بين الاسم العلم منه » .
« أي صادراً من عنده ومن أمره في قوله - نبشرك بغلام اسمه يحيى -
« وبين الصفة إلا لذكراً عناية منه إذ قال - هب لي من لدنك وليا -
« فقدم الحق على ذكر والده ، كما قدمت آسية ذكر الجار على الدار في
قرها - عندك بيتاً في الجنة -
« فأكرمه الله بأن قضى حاجته وسماه بصفته حتى يكون اسمه تذكراً لما
طلب منه نبيه زكريا .
« لأنه أثر بقاء ذكر الله في عقبه ، إذا الولد سر أبيه فقال - يرثني ويرث
من آل يعقوب -
« وليس ثم موروث في حق هؤلاء إلا مقاماً ، ذكر الله ، والدعوة إليه » .
« كان زكريا عليه السلام مظهر الرحمة والكمال .
« وله خط وافر من الجمال والأنس والجلال والقهر والهيبة .
« لكنه قد غلبت على باطنه حالة الدعاء والمسؤال والخوف من أولياء السوء .
« والهم من ضيقه ما قام به من ذكر الله والدعوة بعده .
« ولم يكن له ولي يخلفه ويقوم بأمر النبوة .
« وقد أشرب باطنه حال مريم ، وكونها متبثلة منقطعة إلى الله حضوراً .
« وكانت آيته عند البشارة بالولد الصمت .
« والذكر ، والحبسة في اللسان من غير ذكر الله .

- « جاء يحيى على صورة باطنه ، من غلبة أحكام الجلال ، على أحكام الجمال .
- « حضوراً ، مداوماً على الذكر والخشية ، فإن الولد سر أبيه .
- « وقد حكم حاله على حاله ، حتى تحكمت عليه الأعداء بحكم القهر والجلال .
- « حتى تحكمت على يحيى عليه السلام » .

ثم يقول الشيخ الأكبر :

« ثم انه تعالى بشره بما قدمه من سلامه عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً .

« فجاء بصفة الحياة وهي اسمه .

« وأعلمه بسلامه عليه وكلامه صدقه ، فهو مقطوع به .

« وإن كان قول الروح - والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً - أكمل في الاتحاد والاعتقاد وأرفع للتأويلات » .

قال الشارح :

« يعني أن الله بشر بما قدمه على اقترانه من سلامه عليه ، ووصفه بالحياة التي هي صورته الذاتية ، واسمه الذي يميزه به عن غيره .

« وأعلمه بنفسه بالسلام عليه فكان وصفه إياه بذلك أكمل من حيث أنت كلامه صدق مقطوع به عن الكل من أهل الحجاب والكشف .

« وإن كان قول عيسى عليه السلام - والسلام عليّ - أكمل من حيث الاتحاد ...

« ويدل على كمال تمكن عيسى من شهود هذه الأحادية .

« وأما سلام الله على يحيى من حيث أن الله هوية ، لا في مادة يحيى ، من حيث هويته المطلقة ، فهو أتم وأكمل في الاعتقاد بالنسبة إلى شهود أهل الحجاب

« وأما بالنسبة الى شهود أهل الذوق فالالاتحاد من قبل الحق من كونه تعالى مسلماً على نفسه في مادة يحيوية ، من حيث كون ربه وكيلاً له في التسليم عليه أتم وأعم .

« ولكن لا يدل على تمكن يحيى من شهود هذه الأحدية .

« إلا أنه أرفع للالتباس الذي عند الجاهل المحجوب . »

ثم يقول الامام الأكبر :

« فان الذي انخرقت فيه العادة في حق عيسى انما هو النطق .

فقد تمكن عقله ، وتكامل في ذلك الزمان الذي أنطقه الله فيه .

« ولا يلزم التمكن من النطق على أي حالة كان الصديق فيما به نطق ، بخلاف

المشهود له كيهيى .

« فسادم الحق على يحيى من هذا الوجه أرفع للدلتباس الواقع في العناية

الالهية ، من سلام عيسى على نفسه .

« وإن كانت قرائن الاحوال تدل على قربه من الله في ذلك وصدقه .

« إذ نطق في معرض الدلالة على براءة أمه في المهدي ، فهو أحد الشاهدين .

« والشاهد الآخر هو هز الجذع اليابس ، فسقط رطباً جنيناً ، من غير

فحل ولا تذكير .

« كما ولدت مريم عيسى من غير فحل ولا ذكر ولا جماع عرفي معتاد .

« ولو قال نبي آيتي ومعجزتي أن ينطق هذا الحائط ، فنطق الحائط

وقال في نطقه : تكذب ، ما أنت رسول الله ، لصحت الآية ، وثبت بها أنه

رسول الله ، ولم يلتفت الى ما نطق به .

« فلما دخل على هذا الاحتمال .

« أي عند المحجوب الجاهل . »

« في كلام عيسى بإشارة أمه اليه وهو في المهد ، كان سلام الله على يحيى أرفع من هذا الوجه » .

« يعني مجرد نطق عيسى بإشارة أمه اليه عند سؤال الأحبار مريم بقولهم – ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيتاً – كاف في صحة مدعى مريم وبرائها ، مما توهمت اليهود في حقها .

« إذ برأها الله مما قالوا بنطقه في المهد .

« لكن تطرق فيما نطق به مثل ما مثل به عند الجاهل في نطق الحائط ، كان سلام الله على يحيى أرفع من هذا الوجه » .

يقول الامام الأكبر :

« فموضع الدلالة أنه عبد الله ، من أجل ما قيل فيه أنه ابن الله .

« وفرغت الدلالة بمجرد النطق ، وأنه عبد الله ، عند الطائفة الأخرى ،

المتائلة بالنبوة .

« وبقي ما زاد في حكم الاحتمال في النظر العقلي ، حتى ظهر في المستقبل

صدقه في جميع ما أخبر به في المهد ، فتحقق ما أشرنا اليه » .

يقول القاشاني :

« فرغت الدلالة أي تمت وصحت .

« والمراد بالنظر العقلي النظر العرفي العادي الحجابي .

« لأن العقلي الصريح المجرد لما شاهد صحة بعض كلامه في قوله – إني عبد

الله – حكم بصحة جميع ما نطق به ، لأن قرائن الأحوال عند أهل الذوق والعقل الخالص عن الوهم والعادة دلائل شاهدة كيف نطق .

« ومجرد نطقه دليل على براءة أمه ، صادق في شهادته .

« فمحال أنه لا يدل على صدق نفسه .

« ولو تطرق احتمال الكذب في البعض لتطرق في سائر الأبعاد ، صدقه في موضع الدلالة يقتضي صدقه في البواقي .

« وكذلك سقوط الرطب الجنيّ من الجذع اليابس بإخباره في بطن أمه ، قبل تسليمه على نفسه ، يحكم بكونه روحاً مقدساً مؤيداً بالنور .

« فكيف لا يصدق في تسليمه على نفسه ؟

« وكفى بكلامه في المهد مع كونه كلاماً منتظماً ، مفتتحة دعوى عبودية الله .

« ومختتمه تسليمه على نفسه من قبل الله .

« دليلاً على صدقه بإخباراته وارتفاع اللبس عنها عند العقول السليمة .

« فظهر أنه ليس عند أهل التحقيق لبس واحتمال .

« وأما العقول المحجوبة المشوبة بالوهم فلا اعتبار بنظرها ، .

* * *

فرغنا من اثبات ما قاله ابن العربي .. وما قاله القاشاني شرحاً عليه ..

ومرة أخرى أقول إن الهدف من اثبات ذلك .. هو فتح آفاق جديدة ..

في الفهم والدوق .. لمن شاء أن يستزيد .. وقيل رب زدني علماً ..

أما من يفزع من تلك الآفاق .. فحسبه ان يقف عند الظاهر .. ففيه

ما يكفيه ..

زكوريا ... كما يراه ... ابن العربي؟! ...

فص حكمة مالكية

في كلمة زكرياوية

قال القاشاني :

« انما خصت الكلمة الزكرياوية بالحكمة المالكية ، لأن الغالب على حالة حكم الإسم المالك ، والمليك هو الشديد .

« وقد خصه الله بالشدة وأيده بالقوة ، حتى سرت في همته وتوجهه وأثمرت إجابة رعاية .

« وأثمرت في زوجته حيث قال تعالى - وأصلحنا له زوجه -

« ولولا إمداد الله إياه بقوة ربانية وتخصيصه بمعونة ملكوتية ما صلحت زوجه بعد الكبر وسن اليأس مع كونها عاقراً في شبابه للحمل والولادة .

« وما ظهرت إلا بالتصرفات الإلهية المالكية .

« ولهذا كان يشدد على نفسه في الاجتهاد .

« وظهرت عليه آثار الشدة والقهر حتى نشر بالمنشار ، وقد نصفين .

« فلم يدع الله في رفعه مع كونه مستجاب الدعوة ، لكن مشهده شدة المالك ، وشهود أحدية المتصرف والمتصرف فيه .

« ولما شاهد من عينه الثابتة أن تجلي القمر والشدة يحيط به فاستسلم وسلم وجهه للمتصرف .

« وحيث كان تحت قهر المالك وشدته سهل عليه تحمل الشدة لاتصافه بها .
« فظهرت رحمة اللطف الكامن في ضمن القمر الظاهر في صورة الظلم .
« فانمكست من نفسه أنوار القمر ونيرانه على أعدائه فقهرهم ودمرهم قهراً تاماً ، وتغمده الله برحمته » .

قال الشيخ الأكبر :

« اعلم أن رحمة الله وسعت كل شيء وجوداً وحكماً .
« وأن وجود الغضب من رحمة الله بالغضب ، فسبقت رحمته غضبه .
« أي سبقت نسبة الرحمة إليه نسبة الغضب إليه » .

قال الشارح :

« لأن الرحمة له ذاتية ، لكونه جواداً بالذات ، فياضاً بالوجود من خزانة الرحمة .

« والوجود والوجود أول فيض الرحمة العامة التي وسعت كل شيء .

« وأما الغضب فليس بذاتي للحق ، بل هو حكم عدمي ناشئ من عدم قابلية بعض الأشياء لكمال ظهور آثار الوجود وأحكامه فيه ، فاقضى عدم قابليته الرحمة عدم ظهور حكم الرحمة دنياً وآخرة .

« فسمى عدم فيضان الرحمة عليه لعدم قابليته غضباً بالنسبة إليه من قبل الراحم ، وشقاوة وشرأ وأمثال هذه الألفاظ .

« فظهر أن نسبة الرحمة إليه سبقت نسبة الغضب إليه ، وما هي إلا عدم قابلية المحل لكمال الرحمة .

« ولكمال شهود النبي عليه الصلاة والسلام حقيقة الأمرين ، أو ما اليهما بقوله
« اللهم إن الخير كله بيدك ، والشر ليس اليك » .
« لأنه أمر عدمي لا يحتاج إلى الفاعل وسببه عدم قابلية المحل للخير .
« والشر هو العدم المحض فلا حقيقة له حتى تتعلق به الرحمة (١) .
« بل حيث لم توجد الرحمة الفائضة بالتجلي الفاض على بعض الأعيان لم
يكن لها قابلية نور الوجود إلا نسباً عدمية أو أعداماً نسبية ، كالجهل والفقر
والمرض والألم والموت وأمثالها سميت غضباً .
« وذلك لكمال سعة الرحمة وعمومها كل شيء ، وسعت هذه الأعدام
بالنسبية أو النسب العدمية لشائبة الوجود فيها ، فصار الغضب مرحوماً وإلا
لم يوجد » .

ثم يصعد الامام الأكبر عالياً ويقول :

« ولما كان لكل عين وجود يطلبه من الله ، لذلك عمت رحمته كل عين .
« فان برحمته التي رحمه بها قبل رغبته في وجود عينه فأوجدها .
« فلذلك قلنا ان رحمة الله وسعت كل شيء وجوداً وحكماً » .

« لذلك .. إشارة إلى الطلب ، وعت جواباً لها .. وقوله فإنه تعليل
لعموم الرحمة ، وقوله قبل رغبته : خبر ان ، أي فإنه الله برحمته التي رحم
الشيء بها سابق رغبته في وجود عينه أي طلبه ، فأوجدها أي الرغبة أولاً
وهي الاستعداد .. فلذلك أي فلسبق الرحمة الاستعداد ، قلنا وسعت رحمته
كل شيء وجوداً وحكماً .

(١) مذهب جميل حقاً .. ان الله كل ما يصدر عنه سبحانه خير .. وإنما هناك قوالب تتلقى
ذلك الخير .. وقوالب مغلقة لا تقبل ذلك .. وإنما لمفتاح جميل يفسر للكثيرين ما يجارون فيه من
بلك القضية .. قضية الشر والخير ! ..

« حيث جعله برحمته الذاتية فطلبت مشيئته الوجود فأوجدوه ، أي ولما كانت الأعيان الثابتة في ثبوتها العلمي معدومة العين في نفسها ، طالبة للوجود من الله ، راغبة في وجودها العيني ، عمت رحمته الذاتية كل عين ، بأن أعطتها قابلية التجلي الوجودي .

« فتلك القابلية والاستعداد الذاتي لقبول رغبتها في الوجود العيني .

« وأول أثر للرحمة الذاتية فيها تلك الصلاحية لقبول الوجود المسماة استعداداً .

« فإنه تعالى رحماً قبل استعدادها للوجود بوجود الاستعداد من الفيض الأقدس ، أي التجلي الذاتي العيني الواقع في الغيب .

« وذلك الاستعداد رحمة الله عليها إذ لا وجود لها تقدم بذلك الطالب الاستعدادي .

« وسؤال الرحمة في الغيب أوجدتها في الأعيان بالوجود العيني فذلك رحمته عليها وجوداً ، وهو معنى قوله - وآتاكم من كل ما سألتموه - أي بلسان الاستعداد في الغيب ، .

ثم يصعد الامام الأكبر .. الى افق أعلى .. ويقول :

« والأسماء الالهية من الأشياء .

« وهي ترجع إلى عين واحدة .

« فأول ما وسعته رحمته أزلا شينيته تلك العين الموجدة للرحمة بالرحمة .

« فأول شيء وسعته الرحمة نفسها ، ثم الشينية المشار إليها .

« ثم شينية كل موجود يوجد الى ما لا يتناهى دنيا وآخرة ، عرضاً وجوهراً ، مركباً وبسيطاً ، .

قال القاشاني :

« لما تبين أن رحمته وسعت كل شيء قال : ان الأسماء الإلهية من الأشياء
فيجب أن تكون مرحومة .

« فإن حقائقها التي تتميز بها عن الذات ، وينفصل كل منها عن الآخر ،
أشياء غير الذات .

« فلها أعيان ترجع إلى عين واحدة ، هي حقيقة اسم الرحمن .

« فأول ما وسعته رحمة الله شئئته تلك العين ، وتلك العين حقيقة الرحمة
الانتشارية التي تفيض منها الرحمة الأسماوية ، فتلك العين مرحومة بالرحمة ،
فأول شيء وسعته الرحمة الذاتية التي جعلتها شيئاً ، راحة بالرحمة الأسماوية كل
شيء ، فهي الرحمة بالرحمة .

« فأول شيء وسعته الرحمة الذاتية تنفس الرحمة الأسماوية الشئئية المشار
إليها ، أي العين الواحدة التي هي جميع الأعيان وأصلها .

« فعمت الرحمة المتعلقة بهذه العين جميع الأعيان الثابتة في العلم الأزلي ،
وهي الشئئيات الثابتة في الشئئية الأولى .

« فتنفصلت العين الواحدة إلى الأعيان الكونية ، وهو معنى قوله شئئية كل
موجود ، أي عينه ، لا وجوده على الترتيب إلى ما لا يتناهى وجودها
في الخارج .

« فظهرت النسب الإلهية في النسبة الأولى الرحمانية ، وهي الأسماء الإلهية
في ضمن اسم الرحمن ، وليست إلا نسب الذات إلى الأعيان ، فتحققت حقائق
الأسماء ، فذهب كل اسم بخط من الرحمة حتى تحققت حقيقة .

« ثم أثرت الأسماء الإلهية في إيجاد أعيان الأكوان ، فتنبسط آثار الرحمة
في عرضة الإمكان .

« فتوجد الأعيان الممكنة على الترتيب ، وأحوالها جواهر بسيطة مركبة ،
واعراضاً في الدنيا والآخرة .

« فوجود الرحمة الغيبية في الحقائق الإلهية الأعيان العلمية ، التي هي تعينات وشئون في الوجود الواحد الحق ، إنما هو من الرحمة الذاتية الجودية التي هي عين الذات ، ووجوده الأشياء أي كونها حقائقها بالرحمة الرحمانية الإلهية الأسبائية والله أعلم . »

« ولا يعتبر فيها حصول غرض ولا ملاءمة طبع ، بل الملائم وغير الملائم كله وسعته الرحمة الإلهية وجوداً . »

« وقد ذكرنا في الفتوحات المكية أن الأثر لا يكون إلا للمعدوم لا الموجود وإن كان للموجود فيحكم المعدوم . »

« وهو علم غريب ، ومسألة نادرة لا يعلم تحقيقها إلا أصحاب الاوهام ، فذلك بالدوق عندهم . »

« وأما من لا يؤثر الوهم فيه فهو بعيد عن هذه المسألة . »

« أي لا يعتبر في تعلق الرحمة بالأشياء حصول غرض ولا ملاءمة طبع ، فإن الرحمة وسعت كل شيء فأوجدته سواء كان ملائماً له أو غير ملائم . »

« ثم ذكر أن الأعيان الثابتة المعدومة في أنفسها هي المؤثرة في الوجود الواحد الحق المنبسط عليها بالتميين والتقييد والتكليف والتسمية بحسب خصوصياتها حتى تظهر الأسماء الإلهية والنسب الزمانية . »

« ثم النسب الإلهية هي من حيث خصوصياتها معدومة الأعيان لا تحقق لها . »
« فإن حقيقتها لا تعقل إلا بين أمرين ، والموجود ههنا أحد طرفيها وهو الحق . »

« ولا مؤثر في وجود الأشياء إلا هي . »

« فالآثار كلها إن كانت من الأسماء الإلهية فهي من النسب العدمية ، وإن كانت من الذات المعينة بها فمن الوجود ، باعتبار هذه النسب العدمية الأعيان

وحكم تمييزاتها واقتضاء تلك التعمينات المختصة ، وإن كانت من الأعيان الثابتة في الوجود الحق فالأثر المعدوم والعين وكذلك في الأكوان .

« فإن كل أثر يظهر من موجود فإنه لا ينسب إلى وجوده من حيث هو وجود بل الى عينه العدمية أو وجوده المتعين بتلك النسب العدمية .

« وهذا علم غريب في غاية الغرابة ومسألة نادرة في غاية الندرة .

« إذ لا يعقل أن العدم يؤثر في الوجود ، أي المعدوم من حيث كونه معدوماً يؤثر في الشيء المعلوم فيوجوده .

« ولهذا قال : لا يعلم تحقيقها إلا أصحاب الأوهام .

« أي الذين يؤثرون الأشياء بالوهم فيوجدونها .

« فإنهم يعلمون ذلك علم ذوق ، لا من يؤثر الوهم فيه ، أي من لا يؤثر الوهم الموجود فيه في الأشياء ، أو من يتأثر من الوهم ، فهو بعيد من ذوق هذه المسألة .

« وتحقيق ذلك أن الوجود المضاف إلى الأشياء أمر خيالي ، لا حقيقة له في عينه ، كما مر في مسألة الظل .

« وليس الوجود الحقيقي إلا حقيقة الحق .

« فالوجود المعين الذي نسميه الوجود الإضافي ، وهو المقيد بتمييز ما هو ذلك الوجود القائم بنفسه أمر عدمي ، يمنعه عن كماله الإطلاقي ، ويحصره في القيد الخلفي ، فنسميه وجوداً خاصاً ، وليس إلا ظهور الوجود الحق في صورة أمر عدمي إمكاني .

« فالظهور هو نفس تقيده بالأمر العدمي الإمكاني الذي يحكم عليه بالحدوث .

« ولا حدوث في الحقيقة إلا التعين الذي ينقص الوجود عن كماله والحقيقة بحالها على قدمها الأزلي .

« فهذا سر تأثير المدوم ، ولا تأثير في الحقيقة إلا شوب العدم والحدوث بالوجود الحق ، والعدم في الظل الخيالي :

« فرحمة الله في الاكوان سارية .

وفي الدوات وفي الاعيان جارية .

مكانة الرحمة المشأى إذا علمت .

من الشهود مع الأفكار عالية » .

« المكانة المرتبة الرفيعة والمنزلة العلية ، والمثلئ : تأنيث الأمثل بمعنى الأفضل ، قال تعالى - ويذهبها بطريقتكم المثلئ - أي منزلة الرحمة التي هي أفضل أنواعها ، إذا علمت من طريق الشهود كانت تعلمو الأفكار ، أي أجلّ وأعلى من أن تعلم بطريق الفكر » .

« فكل من ذكرته الرحمة فقد سعد .

« وما ثم إلا ما ذكرته الرحمة .

« وذكر الرحمة الأشياء عين ايجادها اياها .

« فكل موجود مرحوم .

« ولا تحجب يا ولي عن ادراك ما قلناه بما تراه من اصحاب البلاء .

« وما تؤمن به من آلام الأخرة التي لا تفتر عن قامت به .

« واعلم أولا أن الرحمة اتمامها في اليجاد عامة .

« فبالرحمة بالالام أوجد الالام .

« ثم ان الرحمة لها أثر بوجهين ، أثر بالذات وهو ايجادها كل عين موجودة .

« ولا تنظر الى غرض ولا الى عدم غرض ، ولا الى مالايم ولا الى

غير مالايم .

« فانها ناظرة في عين كل موجود قبل وجوده ، بل تنظره في عين ثبوته .
ولهذا رأيت الحق المخلوق في الاعتقادات عيننا ثابتة في العيون الثابتة ،
فرحمته بنفسها بالايجاد .

« والدلك قلنا : ان الحق المخلوق في الاعتقادات أول شيء مرحوم بعد
رحمتها بنفسها في تعلقها بايجاد المرحومين .
ولها أثر آخر بالسؤال .

« فيسأل المحجوبون الحق أن يرحمهم في اعتقادهم ،
« وأهل الكشف ليسألون رحمة الله أن تقوم بهم ، فيسألونها باسم الله
فيقولون : يا الله ارحمنا .

« ولا يرحمهم لإقيام الرحمة بهم فلها الحكم .
« لأن الحكم انما هو في الحقيقة للمعنى القائم بالهمل .

قال القاشاني :

« أثر الرحمة بالذات : إيجادها كل عين ثابتة على العموم .

« فرحمة الحق المخلوق في الاعتقادات بتبعية رحمتها أعيان المعتقدين ، فإنه
عين ثابتة في أعيان المعتقدين الثابتة ، فرحمت أولاً بنفسها في تعلقها بايجاد
المرحومين من الأعيان فتمينت بها وظهرت في مظاهرها وانتشرت ، فكان في
ضمن تعلقها بايجاد المرحومين رحمة إيجاد الحق المخلوق فكان أول مرحوم
المتعلقة بالأعيان .

« لأن الحق المعتقد حال من أحوال أعيان المعتقدين فبنفس تعلقها بالأعيان
تعلقت به .

« وأما أثر الرحمة بالسؤال ، فهو أن يترتب على سؤال الطالبين ، وهم : إما
محجوبون ، وإما أهل الكشف ، فالمحجوبون : يسألون الحق الذي هو ربه في

اعتقادهم أن يرحمهم ، فهم من يرحمون من الراحم المتجلي في صور معتقداتهم بحسب ما يعتقدونه ، فإن تعين الرحمة الوجودية في علم المعتقدين واعتقاداتهم بعد تعينها في علم الله ، فتعلق الرحمة المطلوبة بهم بحسب تعينها في أعيانها متأخر الرتبة عن حقيقة الرحمة متقدم في علم الله على المرحوم بحسب اعتقاده .

« وأما أهل الكشف : فيسألون رحمة الله أن تقوم بهم باسم الله قلبها الحكم عليهم ، لأن القائم بالحل يحكم على القابل بمقتضى حقيقته ، فلا يرحمهم إلا قيام الرحمة بهم فيجعلهم راحمين ، وهو منتهى قوله . »

« فهو الراحم على الحقيقة . »

« يعني المحل القائم بالرحمة . »

« فلا يرحم الله عباده المهتمنى بهم إلا بالرحمة . »

« ليكونوا موصوفين بصفته . »

« فإذا قامت بهم الرحمة وجدوا حكمها ذوقاً .

« فمن ذكرته الرحمة فقد رحم .

« واسم الفاعل هو الرحيم والراحم .

« والحكم لا يتصف بالخلق لأنه أمر توجيه المعاني لذواتها . »

« كما ذكر في الفص الأول من حكم الحياة والعلم على الحي والعالم . »

« فالأحوال لا موجودة ولا معدومة ، إذ لا عين لها في الوجود لأنها

نسب ، ولا معدومة في الحكم لأن الذي قام به العلم يسمى عالماً وهو الحال ، فعالم ذات موصوفة بالعلم ما هو عين الذات ولا عين العلم .

« وما ثم إلا علم وذات ، قام بها هذا العلم .

« فكونه عالماً حال لهذه الذات باتصافها بهذا المعنى .

« فحدثت نسبة العلم اليه فهو المسمى عالماً .
« والرحمة على الحقيقة نسبة من الراحم وهي الموجبة للحكم فهي
الراحمة » .

« أي الجاعلة للذي نسب اليه راحماً » .

« والذي أوجدها في المرحوم ما أوجدها ليرحمه بها » .

« أي ليكون بها مرحوماً » .

« وإنما أوجدها ليرحم بها من قامت به » .

« فيكون راحماً » .

« وهو سبحانه ليس بمحل للحوادث ، فليس بمحل لايجاد الرحمة وهو
الراحم .

« ولا يكون الراحم راحماً إلا بقيام الرحمة به .

« فثبت أنه عين الرحمة .

« ومن لم يندق هذا الأمر ، ولا كان له فيه قدم ما اجتراً ان يقول : انه عين
الرحمة أو عين الصفة .

« فقال : ما هو عين الصفة ولا غيرها ، فصفت الحق عنده لاهي هو ولا
هي غيره ، لأنه يقدر على نفيها ، ولا يقدر أن يجعلها عينه ، فعدل الى
هذه العبارة » .

« وهو الأشمري » .

« وهي عبارة حسنة وغيرها » .

« أي غير هذه العبارة » .

« أحق بالأمر منها » .

« أي ما هو في نفس الأمر من هذه العبارة » .
« وأرفع للاشكال وهو القول بنفي أعيان الصفات وجودا قائما بذات الأوصاف .

« وإنما هي نسب وإضافات بين الموصوف بها وبين أعيانها المعقولة » .
« وهو قول أكثر العلماء والمعتزلة » .

« وإن كانت الرحمة جامعة فانها بالنسبة الى كل اسم إلهي مختلفة » .
« كالرحمة بالرزق والعلم والحفظ وأمثال ذلك من معاني الأسماء الإلهية » .
« فلهذا يسأل سبحانه أن يرحم بكل اسم إلهي ، فرحمة الله والكناية » .

« أي الضمير في قوله - ورحمتي وسعت كل شيء - » .

« هي التي وسعت كل شيء » .

« ثم لها شعب كثيرة ، تتعدد بتعدد الأسماء الإلهية .

« فيما تعم بالنسبة إلى ذلك الاسم الخاص الإلهي في قول السائل :
يا رب ارحم .

« وغير ذلك من الأسماء حتى المنتقم له ان يقول : يا منتقم ارحمني .

« وذلك لأن هذه الأسماء تدل على الذات المسماة ، وتدل بحقيقتها على معان مختلفة .

« فيدعوه بها في الرحمة من حيث دلالتها على الذات المسماة بذلك الاسم لا غير » .

« أي الله مطلقاً » .

« لا بما مدلول ذلك الاسم الذي ينفصل به عن غيره ويتميز فانه لا يتميز عن غيره ، وهو عنده دليل الذات » .

« أي ذات الله ، من حيث هي لا باعتبار المعنى الخاص المميز » .
« وإنما يتميز به بنفسه عن غيره لذاته » .
« أي لخصوصية ذات الإسم الخاص » .
« إذ المصطلح عليه بأي لفظ كان حقيقة متميزة بذاتها عن غيرها .
« وإن كان الكل قد سيق ليبدل على عين واحدة مسماه ، فلا خلاف في انه لكل اسم حكم ليس الاخر .
« فذلك أيضاً ينبغي أن يعتبر كما يعتبر دلالتها على الذات المسماه .
« ولهذا قال أبو القاسم بن قسي في الأسماء الالهية :
« ان كل اسم على انفراده مسمى بجميع الأسماء الالهية كلها ، اذا قدمته في الذكر نعته بجميع الأسماء ، وذلك لدلالاتها على عين واحدة وإن تكثرت الأسماء عليها واختلفت حقانيتها أي حقانق تلك الأسماء .
« ثم ان الرحمة تنال عن طريقين :
« طريق الوجوب ، وهو قوله - فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة - وما قيدهم به من الصفات العامة والعملية .
« والطريق الآخر الذي تنال به الرحمة طريق الامتنان الالهي الذي لا يقترن به عمل ، وهو قوله - ورحمتي وسعت كل شيء -
« ومنه قيل - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر -
« ومنها قوله - « اعمل ما شئت فقد غفرت لك » .
« فاعلم ذلك » .
« رحمة الامتنان ذاتية تنال الأشياء كلها ، لأنها ليست في مقابلة عمل .
« فكل ما تناولته الشئبية تناله هذه الرحمة .

« وهذه الرحمة استظهار الأبالسة والفراعنة والكفرة والسحرة .
« والله المنان ، وعليه التكلان » .

* * *

تم إثبات ما قاله الشيخ الأكبر .. وما ذهب اليه القاشاني شرحاً عليه ..
وها هنا يثور سؤال خطير :
ما علاقة زكريا بهذا الفصل من أوله إلى آخره .. فقد كان كله يدور حول
« الرحمة ، وأسرارها .. فما شأن زكريا بذلك ؟! .
وأقول : علاقة زكريا بذلك هو قوله تعالى : « ذكر رحمت ربك عبده
زكريا » ..

أي .. هذا ذكر رحمت ربك ..
هذا مثال من رحمتنا .. آتيناه عبداً زكريا ..
فمن قوله « رحمت ربك » .. انفجر ما انفجر .. مما قاله الشيخ الأكبر .
تفصيلاً للرحمة الالهية وأسرارها ..
ففى زكريا .. تجليات .. رحمة الوجوب .. ورحمة الامتنان .. التي
أشار اليها الشيخ الأكبر ..
أما ظهور رحمة الوجوب فيه .. فهو نبي كريم .. على أخلاق الأنبياء
وأحوالهم .. فاستوجب رحمة العلم والعمل بأوامر الله ..
وأما ظهور رحمة الامتنان فيه .. فأبرزها .. أن وهب له من لدنه ولياً ..
وهب له يحيى .. وهذه رحمة الامتنان .. في أبرز مظاهرها ..
فكأنه يراد أن يقال :

« ذكر رحمت ربك عبده زكريا » ..

هذا مثال جامع .. في عبدنا زكريا .. لرحمتنا ..
يجمع بين نوعي رحمتنا ..
رحمة الوجود .. التي هي جزاء العلم بنا .. والعمل بأمرنا ..
ورحمة الامتنان .. التي نمن بها .. على من نشاء من عبادنا ..
فهو مثال جامع .. لرحمتنا .. وجوباً .. وامتناناً !
وأخيراً .. أقول لك : هل فهمت شيئاً مما قاله الشيخ الأكبر .. وما
قاله الشارح ؟!

ان كنت قد فهمت .. فنعم العبد أنت ..
وإن كنت لم تفهم .. فاسأل الله .. أن تفهم ! ..

يمهى ... مصدقا ... بكلمة من الله!؟ ...

مِثَاقٌ ...

فرضه الله .. على جميع النبيين ..
أن يؤمن بعضهم ببعض ..
ويُصدّق بعضهم بعضاً .
لأنهم جميعاً .. أرسلوا إلى الناس .. بكلمة واحدة .. « لا إله إلا الله » ..
من إله واحد ..

« أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي .
« لا إله إلا الله » !»

أما ذلك الميثاق .. ففي قوله تعالى :
« وإذا أخذ الله ميثاق النبيين .
« لما آتيتكم من كتاب وحكمة .
« ثم جاءكم رسول مُصدّق لما معكم .
« لتؤمننَّ به ولتنصرنَّه .
« قال أقررتم وأخذتم على ذلكنم إصري .
« قالوا أقررنا .
« قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

فإننا نحوس الذي لا تبديل له .. أن كل نبي .. يؤمن بكل نبي
سيكون بعده ..

لأنهم سلسلة واحدة ..

وكل نبي حلقة في هذه السلسلة ..

ولا تكون الحلقة حلقة في السلسلة إلا إذا كانت تمسك بأحد طرفيها بما
قبلها من حلقات .. وبالطرف الآخر بما بعدها من حلقات ..

أو هم كالبنيان الواحد .. يشد بعضه بعضا ..

فلما كان رسول الله .. صلى الله عليه وسلم .. هو النبي الخاتم .. فلا

نبي بعده ..

كان الأمر الصادر إليه .. أن يؤمن بجميع الأنبياء من قبله .. حيث لا أنبياء

بعده .. ليؤمن بهم ..

« قل .

« آمنا بالله .

« وما أنزل علينا .

« وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما

أتي موسى وعيسى .

« والنبِيُّونَ من ربهم .

« لا نفرق بين أحد منهم .

« ونحن له مسلمون ، ا .

ففي قوله : « والنبِيُّونَ من ربهم » إشارة إلى جميع الأنبياء .. بلا استثناء ..

وفي قوله « لا نفرق بين أحدٍ منهم » إشارة إلى فرضية الإيمان بالجميع ..
وتحريم الإيمان ببعض دون البعض .. بالنسبة إلينا ..
ومن هذا الناموس .. ناموس حتمية إيمان .. كل نبي .. بكل نبي ..
ندخل الى موقف يحيى النبي .. من عيسى النبي ..
قال تعالى :

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب .

« أن الله يبشرك .

« بيحيى مصدقاً .

« بكلمة من الله .

« وسيبدأ وحضوراً ونبيّاً من الصالحين ،

بيحيى .. مُصدّقاً ١٢ .

نفس الناموس .. ونفس الأمر الصادر إلى كل نبي .. أن يُصدّق بكل نبي ..
بكلمة .. من الله ؟!

بالمسيح عيسى بن مريم .. المخلوق بكلمة من الله .. كن فيكون ..

« إذ قالت الملائكة يا مريم .

« ان الله يبشرك بكلمة منه .

« اسمه المسيح عيسى ابن مريم .

« وجيئها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ،

وكما أمر يحيى أن يُصدّق بعيسى .. أمر عيسى أن يُصدّق بيحيى ..

وكان أمراً جميلاً ورائعاً .. أن يُصدّق كل منهما صاحبه ..

في زمان واحد .. وشعب واحد .. ورسالة واحدة ..

فكان أمرهما نموذجاً فريداً .. في تاريخ الأنبياء ..
وُلِدَا في وقت واحد .. وإن تقدم مولد يحيى بخمسة أشهر .. فليس
هذا بفارق ..

وبدأ يحيى يهتف مبشراً بالمسيح .. في نفس الوقت هتف المسيح
ببنوة يحيى ..

كأنهما نبي واحد .. في شخصين اثنين ..

مناظر رائعة .. وأخلاق عليا .. لا تكون إلا من نبي نحو نبي !

ها هو يحيى يبعث من يسأل عن المسيح :

« أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه .

« وقال له : أنت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟

« فأجاب يسوع وقال لهما : اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران .

« العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون

والموتى يقومون والمساكين يبشرون .

« وطوبى لمن لا يعثر فيّ » !

ان يحيى يسأل : أنت هو الآتي ؟ !

أنت هو المسيح الآتي ؟ !

لماذا هذا السؤال ؟ !

ليصدق به .. كما بشّر به !

وبينما يحيى يفرح ويستبشر بظهور المسيح ..

فإن المسيح يبادلُه نفس الشعور !

« وبينما ذهب هذان ابتداء يسوع يقول للجموع عن يوحنا : ماذا خرجتم الى البرية لتتنظروا ؟ .

« أقصبة تحركها الريح ؟ .

« لكن ماذا خرجتم لتتنظروا ؟ .

« إنسانا لابسا ثيابا ناعمة ؟ .

« هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك .

« لكن ماذا خرجتم لتتنظروا ؟ .

« أنبيأ ؟ .

« نعم أقول لكم وأفضل من نبي .

« فان هذا هو الذي كتب عنه : ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك .

« الحق أقول لكم لم يتم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان ، ! .

نعم .. أقول لكم .. وأفضل من نبي ؟ . ! .

اعتراف بنبوته يحيى .. ثم شهادة بأنه من عظماء الأنبياء ..

ثم شهادة أخرى بأنه أفضل ما ولدت النساء في عصره .. « لم يتم .. بين المولودين .. من النساء .. أعظم من يوحنا ، ! .

وهذا من المسيح .. إيمان يحيى .. وتصديق بيحيى .. ونصر ليحيى .. « لتؤمننَّ به وتتنصرنَّه » ؟ . ! .

تماماً .. كالميثاق الذي أخذ على جميع النبيين ..

وليس ثناء يحيى على عيسى .. وعيسى على يحيى .. نوعاً من الجاملة ..

كلا .. فالأنبياء منزهون عن تلك السفاسف .
 وإنما هو تقرير حقيقة .. وإعلان صدق ..
 والأنبياء إذا نطقوا .. نطقوا حقاً !
 وأخرى .. أبهج وأسمى !
 حين وقف يحيى .. نبياً .. يهتف في الناس ..
 « وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر ..
 « كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية » .
 ان يحيى قد صار .. نبياً .. فماذا كان منه ؟ !
 « فجاء الى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمخفرة
 الخطايا .
 « كما هو مكتوب في سفر أقوال إشعياء النبي القائل : صوت صارخ في
 البرية ، أعدوا طريق الرب اصنعوا سبيله مستقيمة » !
 إنه ناموس الأنبياء جميعاً ..
 دعوة الناس إلى التوبة ..
 ألم يهتف أخوه نوح من قبل :
 « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا .
 « يرسل السماء عليكم مدرارا » ؟ !
 ما من نبي .. إلا دعا الى التوبة ..
 ظاهرة مكررة .. ثابتة .. في جميع دعوات السماء ..
 انظر إلى إجمال هذا الناموس في قوله تعالى :
 « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » !

جميعاً ؟!

كل البشر .. مأمورون أن يتوبوا .. إلى الله . على لسان رسالهم !
وإنما كان ذلك كذلك .. لسبب واحد :

« كل ابن آدم خطيء .

« وخير الخطائين التوابون » !

وما دام كل ابن آدم خطيء .. تحتم أن يكون الناموس الموازي .. فتح باب
التوبة لهم جميعاً ..

كلما أخطأوا .. تابوا ..

وكلما تابوا .. تاب الله عليهم !

ومن هنا تحتم أن يدعو كل نبي .. قومه إلى التوبة !

فإذا هتف يحيى بالتوبة لمغفرة الخطايا .. كان هتافه أمراً حتمياً ..
وحتماً مقضياً !

وجلبجل يحيى عالياً في البرية : « وكان يقول للجموع الذين خرجوا
ليعتمدوا منه : يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي .

« فاصنعوا أثمار تليق بالتوبة » .

ثم حذرهم من الاعتماد على الأنساب فقال :

« ولا تبتدنوا تقولون في أنفسكم : لنا ابراهيم أباً .

« لأنني أقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابراهيم » .

ثم جمعت الجماهير تسأل وهو يجيب .. ليوجههم الى التوبة العملية .. وهي
استقامة السلوك :

« وسأله الجموع قائلين : فماذا نفعل ؟

« فأجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليعمل هكذا » .

هذه هي آثار التوبة الصحيحة .. وليست التوبة قولاً باللسان ! .
ثم يعلن يحيى .. أنه مجرد مقدمة للمسيح .. ومبشر آبه .. فتتلاً منه ..
تلك الكلمات الباقيات الساميات :

« وإذا كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لهله
المسيح أجاب يوحنا الجميع قائلاً : أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتي من هو أقوى
مني ، الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه ، هو سيعمدكم بالروح
القدس ونار » .

ولكن يأتي من هو أقوى مني ؟ ! .

الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه ؟ ! .

ان يحيى .. وهو ما هو .. من العظمة .. يقرر أن المسيح أقوى منه ! .
ثم يتواضع ويتواضع : لست أهلاً أن أحل سيور حذائه ! .

هذه لغة الأنبياء .. إذا تحدث بعضهم عن بعض ! .

« قال رجل .. لرسول الله .. صلى الله عليه وسلم : يا خير البرية .

« فقال صلى الله عليه وسلم : ذاك ابراهيم » ! .

انهم .. صلى الله عليهم وسلم .. في أعلى مقامات التواضع ! .

وهكذا .. يحيى يُصدق عيسى ..

وعيسى .. يُصدق يحيى ..

ويحيى .. يتواضع لعيسى .. « لست أهلاً ان أحل سيور حذائه » ! .

وعيسى يتواضع ليهيى .. « وأفضل من نبي » .. « لم يقيم بين المولودين

من النساء أعظم من يوحنا » ! .

إلا أنهم إذا صدق بعضهم بعضاً .. وبشّر بعضهم ببعض .. وأثنى بعضهم

على بعض .. لا يقولون إلا حقاً ! ..

يجبى ... نبيا ... ۱۹...

أعلى ...

ما خلق الله .. الأنبياء ..
حقائقهم .. أعلى الحقائق ..
وشمائلهم .. أعلى الشمائل ..
تجد ذلك مكنوناً .. في مثل قول .. من ليس كمثلته شيء :
« لا تخف .. انك أنت الأعلى » .
وإن كان الخطاب إلى أحد الأنبياء .. وهو موسى عليه السلام ..
ولكن الإشارة إلى جميع الأنبياء ..
لأن ما ينتظم نبياً .. ينتظم سائر الأنبياء ..
فإن شئت ما هو أشمل .. فاقرأ :
« ولقد سبقتم كلمتنا لعبادنا المرسلين ..
« انهم لهم المنصورون .
« وإن جندنا لهم الغالبون » ! .
هم الغالبون .. فهم الأعلىون ..
« وإن شئت اخربى .. فاقرأ :
« وسلامٌ على المرسلين » ! .

فإن اطمأن منك الفؤاد .. فإن لك أن تسأل :

« لماذا كان الانبياء هم أعلى الخلق؟! »

الجواب .. كانوا كذلك .. لأن حقائقهم هي أعلى الحقائق ..

فلما بُعثوا .. حملوا ما لم يستطع أحدٌ أن يحمل ..

فما منهم من نبي .. إلا إذا قام يدعو إلى الله .. كان الخلق له ضدّاً ..

فكان النبي في كفة .. وحده ..

والجميع ضده .. في الكفة اليسرى !

وفي هذا إشارة .. إلى أن حقيقة هذا الواحد .. أثقل في الميزان من جميع الأمة التي تعمل ضده ..

تجد الإشارة الى ذلك في قوله :

« ان ابراهيم كان أمة » !

وفي مثل حديث :

« لو وزن ايمان ابي بكر وإيمان الأمة لرجح ايمان ابي بكر » .

— أو كما قال —

وإبراهيم كان أمة .. لأن حقيقته تعدل أمة .. بل أكثر ..

وأبو بكر رَجِح الأمة .. لأن حقيقته تعدل أمة ..

انها مسألة حقائق ..

فإذا ما نزل أصحاب هذه الحقائق إلى الدنيا .. ظهرت تلك الحقائق في صورة تفوقهم الساحت في أمور الإيمان بالله ..

وتأمل في ذلك .. مقامات ابراهيم في حياته ..

ومقامات أبي بكر في حياته ..

تدرك كثيراً عن هذه المسألة ..
فأي نبي .. بُعث في أمة .. كان هو أعلى من تلك الأمة كلها .. أي
بعدها وزيادة ..

ويبدو ذلك واضحاً حين يتحزب جميع أهل الباطل ضده ..

ويقف هو وحده أمامهم ولا يبالي ..

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه .

« ولا يخشون أحداً إلا الله » ..

لا يخشون أحداً؟! .

ولو اجتمعت الأمة كلها .. ضده .. فهو أقوى منهم .. ولا يقيم لهم وزناً ..

من هذا المنطلق .. ننطلق إلى يحيى .. نبياً .

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » ..

ترعرع يحيى في البرية .. محرراً من الخلق .. ما لأحد عنده من نعمة تُجزي .

فهو في أوسع آفاق الحرية ..

ومن هذه البرية .. هتف داعياً إلى الله ..

داعياً إلى الإيمان الصحيح .. البعيد عن الأعيب رجال الكهنوت ..

وهذا يثير نائرة الكهان ..

والتف من حوله كثير من الجماهير .. وهذا يثير عليه نائرة الحاكم .. وكان

اسمه هيرودس .

وهيرودس هذا .. أو هيرودس الصغير .. تمييزاً له عن أبيه هيرودس

الكبير .. الذي سُمي ليذبح يحيى .. وعيسى .. طفلاً ..

هذا الهيرودس .. كان هو فرعون يحيى ..

ولكل نبي فرعونه ..
 وفرعون ابراهيم .. كان النمرود ..
 وفرعون موسى .. مشهور معلوم ..
 وفرعون .. النبي صلى الله عليه وسلم .. كان أبا جهل .. وهكذا ..
 وفرعون .. يحيى .. كان هيرودس ..
 والذي أضحك وأبكى .. أن يحيى في أعلى عليين ..
 وهيرودس ذاك في أسفل سافلين ..
 يحيى .. « .. وزكاة .. وكان تقياً » . أعلى الأخلاق وأزكاها وأرقاها ..
 وهيرودس .. كان في الخضيض .. في الدرك الأسفل .. من الجحيم
 والاستهتار والحلاعة والطفيان ..
 وكان الصراع .. وكان النضال والجهاد .. بين النقيضين ..
 يحيى .. يحرر الجماهير من عبودية الحاكم .. ويُعبدُهم لله وحده ..
 وهيرودس .. يريدُهم له عبيداً ..
 منزلة يحيى ترتفع الى السماء .. ومنزلة هيرودس تهوي إلى القاع .. في
 أعين الجماهير ..
 وهي القصة الخالدة المكررة .. دائماً .. في تاريخ البشرية ..
 ما من نبي دعا قومه إلى الله .. إلا انتفض الحكم القائم ضده ..
 ابراهيم .. قاومه الحكم القائم وعلى رأسه النمرود ..
 موسى .. قاومه الحكم القائم وعلى رأسه فرعون ..
 داوود .. قاومه الحكم القائم وعلى رأسه طالوت ..
 وهذا يحيى .. قاومه الحكم القائم وعلى رأسه هيرودس ..

ولن نجد لسنة الله تبديلاً !.

ومن المعلوم أن الأنبياء لا يطلبون حكماً .. فلماذا يقاومهم أهل الحكم !؟
منطق الملوك .. أو الحكام .. أن هؤلاء بدعوتهم الجديدة .. يقوضون
دعائم حكمهم .. فلا بد من القضاء عليهم !.

وهذا هو المنطق الذي سيطر على هيرودس ..

ان الشعب يسمع إلى يحيى ..

ان الشعب يتجمع حول يحيى ..

ان يحيى يكشف عيوب الحكم .. ويهز أركان السلطة ..

إذا لا بد من القضاء على يحيى ..

ولكن كيف ؟ . بأي منطق وبأي حجة !؟ .

ثم هؤلاء رجال الكهنوت .. كيف يسامون لهذا الشاب صولجانهم ..
وملك كهنوتهم !؟

انهم يشار اليهم بالبنان ..

ويتيمهون كالطواويس في طيما السهم .. أيستسلمون لهذا الشاب الذي يسكن
الكهوف ويتمنطق بالجلود !؟

كلا .. لا بد من القضاء عليه .. حتى لا يزل عرش الكهنوت !.

وانطلق يحيى .. « صوت صارخ في البريه » ..

« وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر .

« إذ كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية » .. أي نائب القيصر ..

« وهيرودس رئيس ربيع على الجليل » .. وهو ما يشبه نظام المحافظات

أي محافظ محافظة الجليل ..

- « وفيلبس أخوه رئيس ربيع على ايطورية » .. أي محافظ ايطورية ..
- « وليسانيوس رئيس ربيع على الابليّة » .. أي محافظ الأبلية ..
- « في أيام رئيس الكهنة جنّان وقيافا .
- « كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية » .
- ومن هنا كان الصراع متركزاً بين رئيس الجليل وبين يحيى .. لأنّ يحيى متف هتافه في منطقته .. فأحس بالخطر الدام من صرخته ..
- « فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن .
- « يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا .
- « كما هو مكتوب في سفر أقوال إشعياء النبي القائل ، صوت صارخ في البرية .
- « أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبيله مستقيمة .
- « كل واد يمتلئ ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقاً سهلة » .
- كل هذه أمور لا يرحب بها هيروُدس .. فهو كشأن أي حاكم .. لا يريد إزعاجاً ولا خروجاً على القانون .. ليتفرغ لسهراته الحمراء بعيداً عن تلك الضوضاء !.
- وهذا الإزعاج يمكن أن يزدردده هيروُدس .. ما دام بعيداً عن شخصه .. أما وقد اجترأ يحيى على ذاته التي لا تمس .. فما هنا يتحتم أن يزأر هيروُدس ويضع ليحيى حدوداً لا يتعداها ..
- هذا منطق كل حاكم دائماً وأبداً !.
- « وبأشياء أخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشروهم » .

حتى هنا .. يمكن أن يتطلع هيرودس ما يقوله يحيى .. ما دام بعيداً عن ذاته وشخصه الكريم !.

« أما هيرودس رئيس الربيع ، فاذا توبّخ منه لسبب هيروديا ، امرأة فليبس أخيه .

» ولسبب جميع الشرور التي كان هيرودس يفعلها .

» زاد هذا أيضاً على الجميع أنه حبس يوحنا في السجن .

ان الحاكم يمكن أن يغفر أن تنتقد الشعب ..

أما أن يمتد النقد إلى علاقاته الشخصية .. وغرامياته النسائية .. وأفعاله الإجرامية .. فهذا هنا وتملن الحرب سافرة .. وليكن ما يكون !.

لقد قال يحيى للجهاير : « يا أولاد الأفاعي » ..

فابتلعها هيرودس .. لأنها لا تمس شخصه ..

أما أن يوبخه .. ويملن الحرب عليه .. وعلى أفعاله .. وعلى علاقاته النسائية ..

فهذا لن يمر .. وحرب بحرب ..

والسلطة خمر .. إذا شرها إنسان .. أفقدته العقل والاتزان !.

المَلِك ... العاشق؟ ...!

أقوى صفة ...

من صفات الأنبياء ..

اعلانهم للحق .. واستعدادهم للموت .. في سبيل ذلك الحق ..

« لو وضعوا الشمس في يميني .

« والقمر في يساري .

« على أن أترك هذا الأمر .

« حتى يظهره الله .

« أو أهلك فيه ما تركته ، » .

وقد كان يحيى .. نموذجاً جليلاً جميلاً .. لتلك الصفة من الأنبياء ..

كان يمكن أن يمضي في رسالته .. يدعو إلى الله .. وإلى الخير .. دون

التعرض لهيرودس ..

ولو قد فعل لمجد له هيرودس ذلك ..

ولكن يحيى نبيّ .. والأنبياء يتصدون للباطل مهما كانت أوضاع

المبطلين ..

وتلك مهمتهم الأولى .. التي يرتفعون بها فوق هامات الجميع ..

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة » .

جاهدكم به جهادا كبيرا ..

وأخذ الكتاب بقوة .. يفرض التصدي لأهل الباطل بقوة ..

وهذا ما قد كان ..

كان لفيلبُّس .. رئيس إيطورية .. وأخو هيرودس .. زوجة جميلة ..

لعوب طروب .. هيفاء لفتاء .. اسمها « هيروديا » ..

وكانت المذكورة .. تشاطر العابثين عبثهم .. عندها استعداد أن تلعب

دور المرأة الشيطان ..

وكان زوجها رجلاً هادئاً رزيناً .. يعنى قواعد المنصب واحترام

السلطة .. فلم تكن هيروديا تميل إلى هذا الصنف من الرجال !

والتقى العابث هيرودس .. والعاثة هيروديا .. وتعاشقا .. في السر

تارة .. وفي العلانية تارة ..

وشاع وذاع الأمر في الناس ..

أن زوجة ملك إيطورية .. تحب ملك الجليل .. رغم أن هيروديا زوجة

لشقيقة فيلبُّس !!!

واشتد الغرام .. وكثر تردد هيرودس على قصر أخيه ..

وكثر الكلام .. وأضافت الجماهير من خيالها الأساطير ..

وأخيراً ضاق العاشقان بألسنة الناس .. وكثر اللفظ في الموضوع ..

فدبّر العاشق العابث ألحوبة سياسية .. وشن هجوماً عسكرياً على أخيه

باتفاق سري مع هيروديا ..

وسرعان ما انتصر هيرودس في المعركة .. فقد كانت زوجة فيلبس

مشاركة في التدبير ..

ووقع فيلبس في الأسر .. وزج به هيرودس في السجن ..

وأصبح هيرودس رئيساً للولايتين .. وقائداً منتصراً أمام شعبه ..

وخلًا الجو للعاشقين .. وتبين للناس فيما بعد أن الأمر كله لم يكن إلا
العبوة ليظفر هيرودس بهيروديا .. بعيداً عن زوجها السجين !
وكم في السياسة من الأعيب .. وكم فيها من أكاذيب !
وأخيراً فكّر المذکور أن يُضفي الشرعية على علاقته بهيروديا ..
فلماذا لا يتزوجها .. وقد أصبح زوجها أسيراً سجيناً ؟!
ولكن الزوج ما زال حيناً يُرزق ..
وزواج الرجل بامرأة زوجها قائم .. أمر لا يقصره عاقل .. وتحرمه
الشرائع ..

ثم ماذا يفعل في يحيى .. هذا النبي الذي لا يسكت على باطل ؟!
وثرثر الشعب .. وما أكثر ما يثرثرون !
وتتطلع الجميع إلى عملاق الشريعة والحقيقة .. ماذا يكون موقفه من هذا
المنكر القبيح ؟!

وانتهض نبي الله .. يحيى .. يؤدي ما افترضه الله عليه ..
فقام بزيارة هيرودس في قصره مرات .. في كل مرة يُوجه الجماهير التي
كانت تتبعه في زيارته إلى الله .. ويدعو هيرودس إلى التوبة من آثامه والتطهر
بما هو غارق فيه ..

وكان لكلام النبي وقماً جميلاً في النفوس ..
وإعجاباً به من هيرودس .. إلا أنه اعجاب ظاهر .. لا يصحبه رغبة في
التحول عما هو فيه ..

د لأن هيرودس كان يهاب يوحنا .
د عالماً أنه رجل بار وقديس .

« وكان يحفظه وإذا سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور » ! .
شأن المنافقين « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم
قالوا أنا معكم إنما نحن مستهزءون » .
انه سرور سياسي .. ليركب موجة شهرة يحيى .. فيخدع الجماهير .. أنه
مع يحيى .. فيكسب بذلك تأييدهم ! .
وإذا عاد يحيى .. وانقضت الجماهير ..
عاد العاشقان يباشران بحونهما وزيادة ! .
وفي مرة من المرات التي تردد فيها يحيى على القصر .. وبينما هو يوجه الجموع
إلى الله .. ويرشد هيرودس إلى طريق التوبة ..
دخلت هيروديا على استخفاء وجلست بجوار هيرودس .. كأنها تستمع مع
المستمعين إلى يحيى ..
وكان تدبيراً منها .. أن يراها الناس على هذا الحال .. فبتأكد عندهم أن
يحيى يرضى عن زواجهما .. وها هو يسكت عن ظهورهما معاً كزوجين ! .
والأنبياء أعظم الناس ذكاه وأكبر فطنة ..
وما كان ليحيى أن يستغل مثل هذا العرييد مقامه في قصره .. هذا
الاستغلال اللثيم ..
هنالك زار يحيى زئير الأنبياء ..
وأعلن في أعلى صوت .. ليسمعه الحاضر والغائب ..
وشن هجوماً شديداً على هيرودس .. وعلى جرائمه .. وعلى آثامه .. وعلى
سلوكه الذي يغضب الله غضباً شديداً ..
وواجه هيرودس بالحقيقة من أمره : يا هيرودس ليس لك حق في امرأة
أخيك الحي .. ولا يحل أن تكون لك ..

ثم جعل يوبخه ويعنفه على استهتاره وارتكابه للجرائم والمنكرات ..
 وهكذا الأنبياء .. « ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله » !
 وما هذا الهيروُدس .. وما يكون ؟!
 لا شيء .. في نظر النبي .. انه مجرد أفاك أثم !
 عزائم الأنبياء .. شيء وراء العقول !
 « أما هيروُدس رئيس الربيع فاذا توبخ منه لسبب هادوديا امرأة أخيه .
 « ولسبب جميع الشعوب التي كان هيروُدس يفعلها » .
 وخرج يحيى من القصر .. رفيع الدرجات عند ربه ..
 وترك من ورائه .. مَلِكًا يغلي بشيران النار والانتقام .
 وامرأة قد أهينت على أعين الناس .. وتبددت أحلامها التي تراودها ..
 وألحت العاشقة على عشيقها أن يقتل يحيى ..
 وشاطرها العاشق رأيها .. إلا أنه أوجس في نفسه خيفة من قتله .. أن
 يؤدي ذلك إلى ثورة أتباعه . والإطاحة بملكه المهزوز !
 وفكّر المذكور ودبّر ..
 ثم أصدر أمراً باعتقال يحيى .. فوراً ..
 وجيء بيحيى .. وأدخل السجن .. في غياهب الظلام !
 « لأن هيروُدس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا .
 « وأوثقه في السجن .
 « من اجل هيروُديا امرأة فيلبس أخيه .
 « إذ كان قد تزوج بها .
 « لأن يوحنا كان يقول لهيروُدس لا يحل لك امرأة أخيك .

« فحنقت هيروديا عليه وأرادت ان تقتله ولم تقدر » ! .
كل هذا .. من أجل أن يظفر العربيد بهيروديا ؟ ! .
معارك عسكرية .. مؤامرات سرية .. الأعياب سياسية .. من أجل امرأة .
ولا يهم بعد ذلك .. أن تكون زوجة أخيه الحي ..
لأنها الشهوة .. إذا استولت على عقل إنسان .. سولت له قتل أخيه ..
فقتله ! ..

فهل قتله ؟ !

نعم .. وتكررت قصة هابيل وقابيل مرة أخرى ! .

سالومي ... تراود ... يجيي ؟! ...

« فطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسَهُ .

« قَتَلَ أَخِيهِ .

« فَقَتَلَهُ » ؟ ! .

فكر المجرم : إذا كان أخي هو العقبة .. في زواجي بهيروديا ..
فليقتل قتلاً ! .

وأصدر الشقي هيرودس أمراً ..

وقتل أخاه فيلبس .. بتشجيع من الماكرة هيروديا ! .

وتكررت مرة أخرى قصة الأخوين .. هابيل وقابيل .. ابني آدم .. إذ
قتل قابيل أخاه هابيل .. من أجل أن يظفر بامرأة ! .

وها هو هيرودس يقتل أخاه فيلبس .. لنفس السبب .. ليظفر بامرأة أخيه !
كأن الدنيا خلت من النساء .. فلم يعد على ظهرها إلا هذه المرأة ! .

ثم دخل هيرودس .. الى يحيى في سجنه الرهيب .. في أسفل القصر ..
يعلن اليه أن أخاه فيلبس قد مات .. وبذلك أصبح زواجه من هيروديا امرأته
أمراً طبيعياً ..

فقال له النبي يحيى : ليس بالشر يعالج الشر .. يا هيرودس لا تحل لك
امرأة أخيك أبداً ..

وكان يحيى يعني بذلك .. أن من قتل زوج امرأة .. ليتزوج امرأته تلك ..
فهذا الزواج محرم .. لأنه نشأ عن جريمة ..

وشبيه بذلك تلك القاعدة الإسلامية الذهبية .. أن القاتل لا يرث المقتول .
فازداد هيرودس خيبة على خيبة .. واستيأس أن يظفر من يحيى بشيء ..
لقد مكث يحيى عشرة شهور في هذا السجن .. مقيد الأرجل واليدين ..
وبأشر ممه هيرودس كل صنوف التهديد والإغراء ..
تارة يأمر بتمعيبه .. وتارة يلاينه ويلاطفه .. عسى أن يلين ولو قليلا ..
ولكن الأنبياء لا يتزحزون عن الحق أبداً ..
فماذا يفعل الملك المحرم !؟
وفكر ثم فبكر .. وشاركنه هيروديا .. في التدبير والتفكير ..
ان سلاح الجنس هو أقوى سلاح ..
يتضعض أمام إغرائه أقوى الرجال ..
ووقع اختيارهما على ابنة هيروديا .. تلك الشابة الرائعة الحسن والجمال ..
التي يسيل لها لعاب الرجال ..
وقع اختيارهما على تلك الشقية التي اسمها « سالومي » ..
ورسما لها الخطة .. ستهبين في أجمل ثيابك .. وأحلى زينتك .. إلى
يحيى في سجنه .. وتحاولين بكل إغراء الأنثى فتنته .. داعبيه .. راوديه ..
قبليه .. افعلي ما يمكن لك كأنثى أن تفعلي .. هذا سلاحنا الأخير .. إن
مستقبلي السياسي .. ومستقبل أمك .. في مهب الرياح !
وخرجت سالومي .. لتبدأ دورها الخبيث ..
فأخذت زينتها .. ولبست ثياب الفتنة .. وتعطرت بعطرها الساحر ..
وتوجهت إلى أسفل القصر .. حيث يوجد السجن الرهيب ..
وطرقت الأبواب .. واستقبلها حراس السجن في ارتياب .. ثم فتحوا لها
باب الزنانة التي يسجن فيها نبي الله .. يحيى ..

ها هي الفتاة التي لا تقهر .. وقد شهرت أقصى ما عندها من جمال ..
وها هو أشرف من تحمل الأرض .. وقد أوثقوا يديه ورجليه .. يتلأأ نور
النبوة في وجهه الكريم ..
ونظرت سالومي إليه .. ولسان حالها يقول : « ما هذا بشراً .. ان هذا
إلا ملكك كريم » !
وتلوت كما تتلوى الأفعى قبل أن تنفث سمومها .. وجعلت تتحدث إليه ..
وكل جسمها يرقص إليه ..
عرضت عليه الإفراج عنه فوراً .. وعرضت عليه نفسها .. وحببها ..
وغرامها .. واستعدادها لأن تفعل كل شيء إذا شاء ..
فماذا كان من النبي ؟
كان ما يكون من كل نبي ..
إعراض .. عن القاتنة وعن فتنها ..
ثم دعوتها إلى التوبة .. وإلى الله ..
وها هنا تلأأ من يحيى .. عليه السلام .. حقيقة قوله تعالى « وحصوراً »
أي عازفاً عزوفاً تاماً عن النساء ..
وتحطمت أنوثة سالومي تحطيماً تاماً .. وخرجت يائسة يأساً تاماً ..
لتعلن إلى هيرودس وأمها .. فشلها التام .. أن يلتفت يحيى إلى أنوثتها
بمجرد التفاتة ..
وأمثال سالومي وهيرودس وهيروديا .. لا يفقهون شيئاً عن معادن الأنبياء ..
وأنسى للأرض أن تفهم السماء ؟ !
أو أنى للبهائم أن يفهموا الملائكة ؟ !
هذه السالومي .. التي يسجد أمامها هيرودس .. لعلمها ترضى ..
هي في عيني .. يحيى .. مجرد جرثومة هائلة في الظلام ! ..

ذبح ... يحيى ۱۹

عنوان ...

هذا الفصل .. عنوان غليظ .. تشمئز منه القلوب .. وتفزع له النفوس ..

أيذبح الأنبياء !؟

اي وربى .. ذبحوه .. وجاءوا برأسه .. لترقص بها راقصة !؟.

هذا ما كان .. وهذا ما حدث .. فكيف كان ما كان !؟.

في ليلة مشثومة .. ليلة عيد ميلاد الشقي هيرودس .. حيث يقام حفل سنوي يتوافد فيه الرسميون والمنافقون لتهنئة الملك بعيد ميلاده .. وخاصة في ذلك العام حيث ضم المذكور الى ملكه مملكة أخيه فيلبس .. فيستعرض الشقي جيشه نهاراً .. ويتلقى التهناني والهدايا ..

وفي المساء يقام حفل راقص .. تقدم فيه جميع أنواع اللهو والخمر والنساء والرقصات والراقصات ..

وهكذا على الشعوب المسكيننة دائماً ان تدفع من كدحها .. الى الملوك تكاليف عيشتهم ولهوم وإجرامهم !.

في تلك الليلة الراقصة .. كان الملك هيرودس .. وصاحبته الموقورة هيروديا .. وابنتها الغائنة سالومي .. على رأس الحاضرين .. في الحفل الصاخب الراقص ..

ومُدَّت الموائد .. وأديرَت الكؤوس .. فدارت بالرهوس ..
وشرب الملك .. وشرب المدعوون والمدعوات ..
وعزفت الموسيقى .. وانطلقت الرقصات .. وارتفعت الصيحات ..
والملك العرَبيد .. يلعب هذه الراقصة وتلاعبه .. ويحتضنها وتحتضنه ..
بين ضحك الضاحكين والضحكات ..

إلا انه يريد امرأة بالذات .. لترقص له على النغمات ..
يريد سالومي .. ليشبع نهمه الجنوني نحوها ..
وطلب الملك الى سالومي .. ان ترقص .. فامتعت وتمتعت ..
فازداد شوقاً اليها .. وتوسل اليها بكل ما يملك أن ترقص ..
فازدادت تنمناً ودلالاً ..

فعرض عليها ان تطلب منه ما تشاء .. نظير ان ترقص له ما يشاء ..
هنالك سألت سالومي امها هيروديا .. ماذا أطلب يا أمّاه ؟!
قالت الأم .. في حقد شديد : رأس يوحنا .. يا سالومي .. في طبق من
ذهب .. لترقص بها امام الملك !.

واغمم الملك الخمر لخداحة الثمن المطلوب ..
إلا انه اعطى وعداً ووعد الملوك لا يُرد !.
فأصدر الشقي أمراً .. ان يؤتى برأس يحيى فوراً ..
وانطلقت سالومي ترقص وترقص .. في هيستريا الوحوش حين تظفر
بالفريسة !..

وضجت القاعة رقصاً .. مع رقص سالومي .. وتمايل الحاضرون سُكارى !.

وذهب السياف .. ومعه كوكبة من الجنود إلى السجن .. تنفيذاً لأمر
المملك العربيذ ..

وبينا كان الحفل يتمايل سُكراً وضحكاً .. ورقصاً ..

كان السياف .. قد دخل الى زنزانة السجن ..

فوجد يحيى .. الأغلال في قدميه .. والحبال تقيد يديه ..

فهل يستطيع الدفاع عن نفسه !

وها هنا يسقط القلم من يدي .. ويتجمد تفكيري ..

ان أقبح جريمة تقع في تلك اللحظة ..

ها هو السياف .. يهوي بسيفه في سرعة فائقة .. على رقبة النبي يحيى ..

فيفصل الرأس عن الجسد !؟

ان يحيى .. يُذبح !؟

ان نبياً .. يُذبح !؟

اللعنة الله .. على هرودس القبيح .. ولعنة الله على سالومي .. ولعنة
الله على هروديا .. ولعنة الله على الحاضرين جميعاً .. ولعنة الله على ذلك
السياف القبيح !

نبي الله .. يُذبح !

شيء تخبر له الجبال هدأ .. ان ذبحوا نبي الله .. ذبحاً !

ثم ماذا !؟ ثم يحمل السياف الرأس .. على طبق ..

وها هو يدخل سريعاً .. الى الجمع القمبيح الخمور ..

ونظر المجرمون الى الرأس .. في بلاهة واستخفاف !

وقدم السياف المشنوم .. الرأس إلى سالومي .. فقدمتها الشقية إلى أمها ..

- ها هنا وقعت معجزة أخرى . .
- ان الرأس تهتف من الطبق : لا يحل لك أن تأخذ امرأة أخيك ! .
- هنالك أصاب هيرودس خوف وصمت رهيب ! .
- « واذ كان يوم موافق لما صنع هيرودس في مولده ، عشاء لعظائنه وقواد الالوف ووجوه التجليل .
- « دخلت ابنة هيروديا ورقصت .
- « فسمرت هيرودس والمتكئين معه .
- « فقال الملك للصبيّة معها اردت اطلبني مني فأعطيك .
- « وأقسم لها ان معها طلبت مني لأعطيتك حتى نصف مملكتي .
- « فخرجت وقالت لأمها ماذا أطلب ؟
- « فقالت : رأس يوحنا المعمدان .
- « فدخلت للوقت بسرعة الى الملك وطلبت قائلة : أريد أن تعطيني حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق .
- « فعزن الملك جداً .
- « ولأنجل الاقسام والمتكئين لم يرد ان يردها .
- « فللوقت ارسل الملك سيافاً وأمر ان يؤتى برأسه .
- « فمضى وقطع رأسه في السجن .
- « وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبيّة والصبيّة أعطته لأمها .
- « ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها في قبر ، ! . .

وسلام عليه يوم ولد ... ويوم يموت ...
ويوم يبعث حيا ...؟

رُب سائل يسأل ...

أين هو السلام .. على يحيى .. يوم ولد .. ويوم يموت .. ويوم يُبعث حيًّا ؟
أين هذا السلام .. وقد نُجث عنه .. ليُقتل عند مولده .. لولا فرار أمه
به إلى البرية ؟!

وأين هو السلام .. يوم يموت .. وقد مات مذبحاً ؟!
الجواب ... ان المراد بقوله تعالى :

« وسلام عليه يوم يولد .

« ويوم يموت .

« ويوم يبعث حيًّا » .

المراد .. سلامٌ عليه منَّا .. يوم ولد ..

أي .. يولد نبياً .. عليه السلام منَّا ..

وسلامٌ عليه منَّا .. يوم يموت ..

أي .. يموت نبياً .. عليه السلام منَّا ..

ويوم يُبعث حيًّا .. عليه السلام منَّا ..

لا يعصينا .. ولا نمذبه ..

« ولم يكن جباراً عصياً » .!

وهذا هو السلام الحق ..
 أن تسلم وجهك لله ..
 وأن تنجو من عذاب الله ..
 أما البلاء .. فهو درجات تبلغها عند الله !
 قالوا : (« وسلام عليه ، أي سلام من الله عليه في هذه الأيام ، وإنما خص
 التسليم والسلام بهذه الأحوال لأنها أصعب الأوقات وأوحشها) .
 يوم وُلد .. لأن المولد لحظة انتقال الإنسان من بطن أمه إلى الدنيا ..
 ويوم يموت .. لحظة انتقال الإنسان من الدنيا إلى القبر ..
 ويوم يُبعث حياً .. لحظة انتقال الإنسان من القبر إلى الحشر ..
 والانتقال من وضع مألوف للإنسان .. إلى وضع جديد عليه .. يورثه
 وحشة وخوفاً ..
 فإذا نزل عليه السلام .. بدل خوفه سروراً .. ووحشته أمناً !
 « عن أنس بن مالك .
 « عن مالك بن صعصعة .
 « أن نبي الله صلى الله عليه وسلم .
 « حدثهم عن ليلة أُسرى به .
 « ثم سعد حتى أتى السماء الثانية .
 « فاستفتح قيل : من هذا ؟
 « قال : جبريل .
 « قيل : ومن معك ؟
 « قال : محمد .

« قيل : وقد أرسل اليه ؟

« قال : نعم .

« فلما خلصت ، فاذا يحيى وعيسى ، وهما ابنا خالتي .

« قال : هذا يحيى وعيسى ، فسلم عليهما .

« فسلمت ، فردًا .

« ثم قالوا : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الصالح ، .

[أخرجه البخاري]

﴿ تمت ﴾

فهرس

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة
٩	كهيصص
١٣	إذنادى ربه نداءً خفياً
١٧	وكانت امرأتى عاقراً
٢١	يا زكريا إنا نبشرك
٢٥	فنادته الملائكة
٣١	هنالك دعا زكريا ربه
٣٩	أنسى يكون لى غلام
٤٧	اجعل لى آية
٥١	فخرج على قومه من المهراب
٦١	وآتيناه الحكم صبياً
٦٩	اسمه يحيى
٧٧	لم نجعل له من قبل سمياً

الصفحة	الموضوع
٨٥	المسيح يصف يحيى
٩١	قتل زكريا
١٠٣	يتيم في الصحراء
١١٣	يا يحيى خذ
١٢١	شخصية يحيى
١٣٣	من لدنك ... من لدنا
١٣٩	يحيى ... كما يراه ابن العربي
١٤٩	زكريا ... كما يراه ابن العربي
١٦٧	يحيى ... مصداقاً بكلمة من الله
١٧٧	يحيى ... نبياً
١٨٧	الملك ... العاشق
١٩٥	سالومي ... تراود ... يحيى
٢٠١	ذبح ... يحيى
٢٠٦	وسلام عليه يوم وُلِدَ ... ويوم يموت ... ويوم يُبعث حياً
٢١٢	فهرس